

الفجالة قديمًا وحديثًا

توفيق حبيب

الفجالة قديمًا وحديثًا

الفجالة قديمًا وحديثًا

تأليف
توفيق حبيب



الفجالة قديمًا وحديثًا

توفيق حبيب

رقم إيداع ٧٥٢٧ / ٢٠١٤
تدمك: ٢ ٧٧٦ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: خالد المليجي.

المحتويات

من شرف الديار   صـيـانـة الآثـار
ومن وفاء الخلف   رعي بقايا السلف

خليل مطران

الفجالة قديمًا وحديثًا
في مجتمع الإصلاح القبطي

دعاني «مجتمع الإصلاح القبطي» لإلقاء محاضرة في قاعة نادي اتحاد الشبَّان المسيحيين — الواقع خلف قسم بوليس الأزبكية — يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩١٨، فلبيت الدعوة، وجهزت على عجل مسامرة تاريخية وصفية في الفجالة القديمة والحديثة، وما كان يحيط بها من قرى وبساتين، وكان الحاضرون نخبة من الأدباء والمحامين وطلبة المدارس، فَرَاقَهم البحث، وسألني كثير منهم أن أطبعه، فبذلت جهدي في تنسيقه، وشرْح بعض غوامضه، ونشرته في هذه الكراسة تقدمةً للباحثين في تاريخ القاهرة وخططها وآثارها.

الفجالة قديمًا

(١) البحر من كل جهة

لو أننا عدنا إلى أربعة آلاف سنة مضت أو ما قبلها، وأردنا الجلوس في هذا المكان، لما وجدنا أرضًا نفترشها، بل كان لا بدَّ لنا من سفينة مصرية تقف وسط النيل، الذي كان في ذاك الحين، وإلى قرون طويلة يغمر النصف الغربي من مدينة القاهرة الحاضرة، على ما هو ظاهر في خريطة للبحاثة المستشرق إدوارد ويليم لين صدَّر بها كتابه «مصر منذ ٥٠ عامًا» الذي طبعه ستانلي لين بول.

ففي هاتيك الأيام، إذا وقف هنا شخص متجهًا إلى الشمال، رأى أمامه مدينة عين شمس، فإذا التفت إلى الجنوب الغربي رأى مدينة منفيس، وإلى المدينتين كان يأتي الطلبة من الشرق والغرب ليتلقوا علوم المصريين، فإذا عاد الواقف إلى اتجاهه الأول، رأى جبل المقطم على يمينه، وقرى القليوبية على يساره.

(٢) قرية أم دُنَين

ثم أخذ الماء ينحسر شيئًا فشيئًا، حتى صار شاطئ النيل حيث يمر الآن ترام المترو، أو شريط سكة الحديد، وكانت في مكان جامع أولاد عنان وميدان باب الحديد، قرية تعرف بأم دنين.

قال ياقوت في معجم البلدان: «أم دُنين، بضم الدال وفتح النون وياء ساكنة ونون، موضع بمصر، ذكرهُ في أخبار الفتوح. قيل: هي قرية كانت بين القاهرة والنيل، اختلطت بمنازل ربَض مصر.»

وقال في مكان آخر: «وكان في أم دُنين حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط.»

(٣) فتوح مصر

وكانت أم دنين مركز أول موقعة جرت في مصر بين المسلمين والروم، وكان معظم الجيوش الرومانية حينذاك ممتنعة في حصن بابيلون، ولكن الحامية المرابطة في أم دُنين عاقت عمرًا عن التقدم بضعة أسابيع، حدثت فيها مناوشات عديدة، انتهت باستيلاء عمرو عليها.

ولما رأى عمرو أن ما معه من المقاتِلة لا يكفي لفتح حصن بابيلون، أراد أن يشْغل جيشه بعمل ريثما يأتيه المدد؛ فخرج في غارة إلى الفيوم، وعبر النيل في قوارب، وسار بطريق منف إلى الفيوم، فلم يفلح في الاستيلاء عليها، إلَّا أن هذه الخَرجَة انتهت بما قصد إليه؛ فإنه عندما عاد إلى عين شمس في صيف سنة ٦٤٠م لحق به المدد الذي بعثه أميرُ المؤمنين، وفي مقدمته الزُبير بن العوام، وعدتهم ١٢٠٠٠ مقاتل.

وانتهز الروم فرصة تغيُّب عمرو بالفيوم، فاستولوا ثانية على «أُم دُنين»، ثم أعد تيودور قائدهم نحو ٢٠ ألف مقاتل، وأراد مناجزة العرب، فزحف إلى عين شمس قاعدة الجيش العربي، فوضع عمرو كميناً من جيشه في موضع خفي بالقرب من الجبل الأحمر — شرقي العباسية — وآخر قريبًا من أُم دُنين، ولاقى تيودور بالفريق الأكبر من الجيش، فلما حمي وطيس الحرب ثار الكمينان على جناحي الجيش الروماني، وسحقوهما سحقًا، واستولى عمرو على مقدمة الخط الأول من خطوط الدفاع عن عاصمة الديار المصرية، وتقدم إلى الجنوب لمحاصرة حصن بابيلون (تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، تأليف عُمر الإسكندري والمستر سَفِدج، المطبوع بمطبعة المعارف بالفجالة، طبعة ثانية، ص١٩٠ و١٩١).

(٤) المقس أو المكس

ثم أطلق على قرية أم دنين اسم المقس أو المكس.

قال العماد الأصفهاني: «من الناس من يسميه المقسم؛ قيل لأن قسمة الغنائم عند الفتوح كانت به.»

وقال القاضي أبو عبد الله القضاعي: «المكس كانت ضيعة تعرف بأم دُنين، وإنما سميت المقس؛ لأن العاشر كان يقعد بها، وصاحب المكس. وقيل المكسُ فقلب فقيل المقس. وأصل المكس في اللغة الجباية.»

وقال ابن سيده في كتاب المحكم: «المكس الجباية، مكسه يمكسه مكسًا. والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في أسواق الجاهلية.»

وكان أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل.

وروى ابن قُتيبة في كتاب الغريب أن النبي ﷺ قال: «لعن الله سهيلًا كان عشارًا باليمن، فمسخه الله شهابًا.»

(٥) البستان الكافوري

وكان الأمير أبو بكر محمد بن طفج بن جف الإخشيد[١] أوَّل من عمَّر أرض الفجالة، فأنشأ فيها بستانًا عريض الضواحي، وجعل له أبو ابًا من حديد، وكان ينزل به ويقيم فيه الأيام، واهتم بشأنه، من بعد الإخشيد، ابناه الأميران أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن علي في أيام إمارتهما بعد أبي هما، فلما استبد من بعدهما الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدي، كان كثيرًا ما يتنزه في هذا البستان، ويواصل الركوب إلى الميدان الذي كان فيه، ثم صار منتَزهًا للخلفاء الفاطميين مدة أيامهم، وما زال عامرًا، حتى زالت دولة الفواطم فحكَّر، وبني فيه سنة ١٢٥٣م.

وقال ابن عبد الظاهر في وصف هذا البستان: «ولم يزل إلى سنة إحدى وخمسين وستمائة، فاختطت البحرية والعزيزية به اصطبلات، وأزيلت أشجاره، ولعمري إن خرابهُ كان بحق، فإنه كان قد عُرف بالحشيشة التي يتناولها الفقراء، والتي تطلع به.»

(٦) الفجالة في أيام الفاطميين

وفي أيام الفاطميين بلغ أوَّل عمران القاهرة مدينة المطرية، وآخره دير الطين — بين مصر القديمة وحلون — فلا يزال السائر بين قصور عامرة، وجنات زاهرة، والنيل عن يمينه، والجبل عن شماله مطلًّا كالمتفرج على جمال تلك المناظر الشائقة، وكانت بقعة الفجالة الحاضرة درة عقد هذه المدينة الرائعة الجمال بما فيها من بساتين الخلفاء، وما على جانبيها من مياه النيل، وأرض البعل.

---

[١] تولى أمر مصر سنة ٩٣٥م وهو رأس الدولة الإخشيدية التي لبثت حاكمة البلاد ٣٤ سنة.

(٧) أرض البعل

قال ابن سيده، صاحب المخصص: «البعل، الأرض المرتفعة التي لا يصيبها المطر إلَّا مرة واحدة في السنة. وقيل: البعل، كل شجر أو زرع لا يسقى. وقيل: البعل، ما سقته السماء. وقد استبعل الموضع. والبعل من النخل، ما شرب بعروقه من غير سقي ولا ماء سماء.»

ووصف العلَّامة المقريزي أرض البعل، فقال: «... وأرض البعل هذه بجانب الخليج تتصل بأرض الطبالة، كانت بستانًا يعرف بالبعل، وفيه منظرة أنشأها الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، وجعل على هذا البستان سورًا، وإلى جانب بستان البعل هذا بستان التاج، وبستان الخمسة وجوه.

وفي أيام النيل ينبت فيها نبات يعرف بالبشنين له ساق طويل، وزهره شبه اللينوفر، وإذا أشرقت الشمس انفتح، فصار منظرًا أنيقًا، وإذا غربت الشمس انضمَّ. ويُذكر أن من العصافير نوعًا صغيرًا يجلس العصفور منه في داخل البشنينة، فإذا أقبل الليل انضمت عليه، وغطست في الماء، فبات في جوفها آمنًا إلى أن تشرق الشمس، فتصعد البشنينة، وتنفتح فيطير العصفور.»

(٨) مناظر الفاطميين في الفجالة

واتخذ الخلفاء الفاطميون الفجالة مقرًّا للَّهو والانبساط، فبنوا فيها المناظر، وغرسوا البساتين.

ومن أهم مناظرهم «منظرة اللؤلؤة»، التي بناها العزيز بالله، ثاني الخلفاء الفاطميين (تولى ٩٧٥م، وتوفي ٩٩٦م)، وكانت هذه المنظرة قصرًا من أحسن القصور وأعظمها زخرفًا، وكان يشرف من شرقيه على البستان الكافوري، ويطل من غربيه على الخليج؛ حيث كانت البساتين، وبركة بطن البقرة، فيرى الجالس في قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة (الفجالة الحاضرة، وجزء من الظاهر)، وسائر أرض اللوق (بين الأزبكية وعابدين)، وما هو من قبليها، ويرى بحر النيل من وراء البساتين.

وسكن اللؤلؤة من وزراء الفاطميين برجوان، الذي تولى الأمر في أيام الحاكم بالله بعد أمين الدولة ابن عمار الكتاميُّ.

وروى المقريزي أنه لما تولى الحاكم بأمر الله — ثالث الخلفاء الفاطميين من سنة ٩٩٦ إلى سنة ١٠٢١م — أمر بهدم اللؤلؤة فهدمت، وأباح أنقاضها فنهبت كلها، ثم قبض على كل من وُجد عنده شيء من ذلك.

قال: «ثم جدد الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم منظرة اللؤلؤة، وفيها توفي الآمر بأحكام الله والحافظ لدين الله والفائز، وحملوا إلى القصر الكبير الشرقي من السراديب.»

ويؤخذ مما رواه أبو المحاسن بن تغري بردي أن عبيد الآمر بأحكام الله قتلوه على مقربة من حلوان، ثم حملوه في عشارى إلى قصر اللؤلؤة، وكان ذلك في أيام النيل، ففاضت نفسه قبل وصوله إلى اللؤلؤة.

وبعد انقراض الفاطميين أسكن صلاح الدين الأيوبي أباه نجم الدين أيوب قصر اللؤلؤة.

وكان من جملة مناظرهم «منظرة المقس»، وكانت معدَّة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول.

ومنها «منظرة التاج»، وكانت واقعة في بستان التاج، وكان للفاطميين فيها أوقات عميمة المبرات جليلة الخيرات.

ومنها «منظرة الغزالة»، وكانت بجوار منظرة اللؤلؤة.

(٩) دار الصناعة في المقس

ولم يكن الفاطميون يقصدون الفجالة للنزهة والرياضة فقط، بل كانوا يأتونها لعرض الأسطول، وخروجه من دار الصناعة التي في المقس، فيحضر رؤساء المراكب بالشواني، وهي مزينة بأنواع العدد والسلاح، ويلعبون فيها بالنيل، ويجرون المناورات.

قال العلَّامة المقريزي: «وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعزِّ لدين الله، وأنشأ المراكب الحربية، واقتدى به بنوه، وكان لهم الاهتمام بأمور الجهاد، واعتناء بالأسطول، وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات، وتسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان، وكانت جريدة قواد الأسطول في آخر أمرهم تزيد علي خمسة آلاف مدوَّنة، منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد.»

وقال ابن أبي طي في تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين الله إنه أنشأ دار الصناعة التي بالمقس، وأنشأ بها ستمائة مركب لم يرَ مثلها في البحر على ميناء.

ولم تكن دار الصناعة قاصرة على أعمال الأسطول، بل كانت تجهز فيها أيضًا السفن التجارية التي تحمل الأقوات بطريق النيل.

(١٠) شيء عن السفن

ووصف الرحالة المؤرخ عبد اللطيف البغدادي ضربًا من السفن المصرية، فقال: «... وأما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال، وأغرب ما رأيت فيها مركب يسمونه العشيري، شكله شكل شباره (؟) داخلة، إلَّا أنه أوسع منها بكثير، وأطول، وأحسن هندامًا وشكلًا، قد سُطِّح بألواح خشب ثخينة محكمة، وأخرج منها أفاريز كالرواشن نحو ذراعين، وبُني فوق هذا السطح بيت من خشب، وعقد عليه قبة، وفتح له طاقات وراوازن بأبواب إلى البحر من سائر جهاته، ثم تعمل في هذا البيت خزانة مفردة، ومرحاض، ثم يزوَّق بأصناف الأصباغ، ويدهن بأحسن دهان، وهذا يتخذ للملوك والرؤساء بحيث يكون الرئيس جالسًا في وسادته، وخواصه حوله، والغلمان والمماليك قيام بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن، وأطعمتهم وحوايجهم في قعر المركب، والملاحون تحت السطح أيضًا، وفي باقي المركب يقذفونه به، لا يعلمون شيئًا من أحوال الركاب، ولا الركاب يشتغل خواطرهم بهم، بل كل فريق بمعزل عن الآخر، ومشغول بما هو بصدده.»

(١١) سراديب مناظر الفجالة

وكان الفاطميون يأتون من القصرين — بجوار الأزهر حيث سوق الصياغ الآن — إلى مناظر الفجالة في سراديب بنوها تحت الأرض، حتى لا يراهم أحد في طريقهم.

قال العلَّامة القلقشندي — صاحب صبح الأعشى — نقلًا عن ابن الطويِّر، الذي كان معاصرًا للخلفاء الفاطميين تحت عنوان «هيئة الخليفة في قصوره»: «ولا يقتصر في القصر على ركوب الخيل، بل يركب البغال والحمير الإناث لما تدعوه الضرورة إليه من الجولان في السراديب القصيرة، والطلوع على الزلاقات إلى أعلى المناظر والمساكن، وله — للخليفة — في الليل نسوة برسم شد ما يحتاج إليه ركوبه من البغال والحمير.»

وقال الباحث الفاضل علي بك بهجت أمين دار الآثار العربية في حواشيه لكتاب «قانون ديوان الرسائل»: «... كان الخلفاء «الفواطم» متى أحبوا الخروج من قصورهم للتنزه إما في البساتين المجاورة للقاهرة، أو للتفرج على الخليج مدة زيادة النيل، أو الذهاب للجامع الأزهر في ليالي الوقود؛ يسلكون إليها في سراديب مبنية تحت الأرض، راكبين حميرًا قصيرة يشدها لهم النساء. وقد عَثر منذ سنتين بعضُ سكان حارة بين السيارج، بينما كان يَحفُر بئرًا في منزله، على سرداب من هذه السراديب. ولما دعيت

لمشاهدته ونزلت فيه، وجدته قبوًا منخفضًا عن أرض الحارة بنحو عشرة أمتار يتجه من الشرق إلى الغرب، وسلكت فيه قليلًا، فعرفت أنه السرداب الذي كان يؤدي بالسالك إلى منظرة اللؤلؤة، التي كانت على الخليج في هذه الجهة.»

وقال ابن إياس نقلًا عن ابن المسبحي: «إن المعز — رأس الدولة الفاطمية في مصر — كان يميل إلى علم الفلك، فأخبره جماعة من المنجمين بأن عليه قطعًا شديدًا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا، ثم أشاروا عليه بأن يختفي في سرب نحو أربعة أشهر، فلما طالت غيبته على جنده ظنوا أنه قد رُفع إلى السماء، فكان الفارس من عسكره إذا نظر إلى الغمام في السماء ينزل عن فرسه، ويقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر من ذلك السرب، وجلس على سرير ملكه، وهم يحسبون أنه كان في السماء وأتى إليهم.»

ومع ما عُرف عن العلَّامة المقريزي[٢] من التدقيق في الرواية عن كل ما وقعت عليه عيناه، أو سمعت به أذناه، فإنه لم يذكر السراديب إلَّا عرضًا، فقال إنه بعد خراب القاهرة، وانطماس معالم الفاطميين، اتخذها الأهالي مقرًا يصرفون إليه فضلاتهم وأقذارهم.

وقال لي الأستاذ يوسف أفندي أحمد — المفتش في لجنة الآثار العربية — إنه عندما شرع في حفر مصارف العاصمة، عُثر على كثير من أجزاء السراديب، ودقق الباحثون في فحصها، فلم يوجد فيها شيء يستحق الأهمية من الوجهة الفنية.

وقد أعاد علينا حضرة الكاتب الفاضل إبراهيم أفندي رمزي ذكر السراديب وأبوابها في روايته «الحاكم بأمر الله» التي يمثلها جوق الأستاذ جورج أفندي أبي ض.

(١٢) أرض الطبالة

وبويع المستنصر بن الظاهر خامس الخلفاء الفاطميين في سنة ١٠٣٦م، ولم تكن سِنَّه يوم مبايعته أكثر من سبع سنوات، وأُمه جارية سوداء، ابتاعها الظاهر من تاجر يهودي، اسمه أبو سعيد سهل بن هارون التستري، ففي سنة ١٠٥٨م غاضب الأميرُ أبا الحارث البساسيريُّ الخليفةَ القائمَ بأمر الله العباسيَّ، وخرج من بغداد يريد الانتماء

[٢] ولد في مصر سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، وتعلم وعلَّم، وتولى النيابة في الحكم، وتوفي سنة ٨٤٥هـ/ ١٣٦٤م.

إلى الدولة الفاطمية بالقاهرة، فأمد الخليفةُ المستنصر بالله ووزيرهُ الناصرُ لدين الله عبد الرحمن البازوري أبا الحارث حتى استولى على بغداد، وأخذ قصر الخلافة، وأزال دولة بني العباس منها، وأقام الدولة الفاطمية هناك، وسيَّر عمامة القائم بأمر الله وثيابه وشباكه الذي كان إذا جلس يستند إليه، وغير ذلك من الأموال والتحف إلى مصر. فلما وصل ذلك إلى القاهرة سُرَّ الخليفة المستنصر سرورًا عظيمًا، وزينت القاهرة والقصور.

وكان في مصر وقت ذاك امرأة مرجلة تقف تحت القصر في المواسم والأعياد، وتسير أيام المواكب وحولها طائفتها وهي تضرب بالطبل، فلما وردت تُحف أبا الحارث قصدت مع رجالها قصر الخليفة المستنصر، وأنشدته قصيدة طويلة عثرت منها ببيتين في كثير من كتب التاريخ، ولكن أفسدهما النساخ، فظهرا في كل كتاب بشكل ورسم، وربما كان أصحهما ما ورد في رحلة عبد اللطيف البغدادي المطبوعة بالعربية واللاتينية في كمبريدج، قالت:

يا بني العباس جدوا ولـيَ الأمـر مـعـد
أمركم كان معـارًا والـعـواري تسـتـرد

فأعجب المستنصر بها، وقال لها: تمنَّيْ. فسألت أن تقطع الأرض المجاورة للمقس، فأقطعها هذه الأرض، وسميت أرض الطبالة.

وروى بعض المؤرخين أن اسمها طرب، وليس نسب، وأنها كانت مغنية المستنصر.

وقال ابن جلب راغب في تاريخه إن نسب هذه مدفونة بأرض بالقرافة الكبرى تجاه زاوية الشيخ صفي الدين بن أبي منصور بالموضع المعروف بالسهمية، وكان عليها قبة فخربت ودثر قبرها.

وحفظت لنا مصلحة التنظيم خبر هذه الهبة بتسمية حارة ضيقة، واقعة شمالي المشغل البطرسي باسم «حارة نسب»، وحارة أخرى إلى جانبها باسم «حارة أبا الحارث»، وحارة في بركة الرطل باسم «حارة أرض الطبالة».

ووصف العلَّامة المقريزي أرض الطبالة بقوله: «يمر النيل الأعظم من غربيها عندما يندفع في ساحل المقس — أولاد عنان — إلى أن ينتهي بالموضع الذي يعرف بالجرف على جانب الخليج الناصري بالقرب من بركة الرطلي، ويمر من الجرف إلى غربي البعل، فتصير أرض الطبالة نقطة وسط من غربيها النيل الأعظم، ومن شرقيها البركة المعروفة

ببطن البقرة والبساتين إلى آخرها، ومن بحريها أرض البعل ومنظرة التاج، فكانت رؤية هذه الأرض شيئًا عجيبًا في أيام الربيع.»

ووصفها علي باشا مبارك، فقال: «أرض الطبالة هي الأرض الكائنة بحري القاهرة، يحصرها الخليج الكبير والترعة الإسماعيلية — الآن تراماواي الخليج والمترو — وسور القاهرة وجامع أولاد عنان.»

فأرض الطبالة هي — بلا نزاع — الفجالة الجديدة والفجالة القديمة حتى منتصف شارع الظاهر، ويدخل فيها شارع حبيب شلبي، ومدخلها من الجهة الغربية هو ميدان باب الحديد.

وبدأت يد الخراب تلعب في بساتين الخلفاء، وما جوارها في أيام القحط العظيم الذي وقع في آخر أيام المستنصر، فقال الرحالة عبد اللطيف البغدادي: «وأما الهلالية ومعظم الشارع ودور الخليج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك؛ فلم يبق فيها أنيس، وإنما ترى مساكنهم خاوية على عروشها، وكثيرًا من أهلها موتى فيها.»

(١٣) سور قراقوش وقلعته

وبينما كانت الفجالة وقصورها تفقد بهجتها في أيام العاضد لدين الله — آخر الخلفاء الفاطميين تولى الحكم من سنة ١١٦٠ إلى ١١٧١م — فكَّر صلاح الدين الأيوبي في بناء سور للقاهرة، وشرع في تنفيذ غرضه سنة ١١٦٩م، وهو وزير للعاضد، فلما تولى الملك انتدب للعمل في السور الطواشي بهاء الدين قراقوش، فبناه بالحجارة قاصدًا أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سورًا واحدًا، فزاد في سور القاهرة القطعة الممتدة من باب القنطرة إلى باب الشعرية، ومن باب الشعرية إلى باب البحر.

وكان لهذا السور خندق ممتد من باب الفتوح إلى المقس، وقال المرحوم علي باشا مبارك في وصف السور والخندق: «وشاهدت آثار الخندق باقية ووراءه سورًا بأبراج له عرض كبير مبني بالحجارة، إلَّا أن الخندق قد انطمَّ، وتهدمت الأسوار التي كانت من ورائه.»

وإلى هذا السور أشار القاضي الفاضل في كتابه إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي، فقال: «… والله يحيي المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه، ويمتد عليهما رواقه، فما عقيلة ما كان معصمها ليترك بغير سوار، ولا خصرها ليتحلى بغير منطقة نضار، والآن قد استقرت خواطر الناس، وآمنوا به من يد تتخطف، ومن يد مجرم يقدم ولا يتوقف.»

وبنى الطواشي قراقوش قلعة، إلى جانب السور، واتفق الباحثون على أنها كانت في موضع جامع أولاد عنان.

(١٤) باب الحديد

ومن مآثر الأيوبيين في هذه الضاحية باب الحديد، الذي لا يزال ميدان المحطة الممتد إلى الفجالة معروفًا به، وقد وصفه العالم الإنكليزي إدوارد ويليم لين بقوله: «… وقد أنشئ باب الحديد في أيام صلاح الدين في وقت بناء السور الثالث — سور قراقوش — وقد هدم بأمر محمد علي باشا سنة ١٨٤٧م.»

ويقول الذين رأوه أنه كان ممتدًا من أمام عمارة إكليمندوس إلى جامع أولاد عنان، ومن داخله تُرب الجبروني ودرب الإبراهيمي ودرب العظامية.

(١٥) منشأة المهراني

ومن المواضع التي اشتهرت على مقربة من الفجالة في أيام المماليك «منشأة المهراني»، فلما كان الظاهر بيبرس البندقداري سلطانًا على مصر (من سنة ١٢٦٠ إلى ١٢٧٧م) أمر وزيره الصاحب بهاء الدين بن حنا تجديد جامع في هذه الضاحية فصدع بالأمر، وأنشأ الأمير سيف الدين بلبان المهراني دارًا ومسكنًا وبنى عمارة في هذه الخطة، عرفت بمنشأة المهراني، وتتابع الناس في البناء فيها، وأكثروا من العمارات، حتى يقال إنه كان بها نيف وأربعون من أمراء الدولة، غير من كان هناك من الوزراء ورؤساء الكتاب وأعيان القضاة ووجوه الناس.

(١٦) شاعر الفجالة: ابن نباته

وفي سنة ١٢٨٧م ولد في زقاق القناديل بمنشأة المهراني ابن نباته المصري الشاعر الأديب المشهور برقته وأدبه. قالوا: قصد التلعفريُّ البها زهيرًا، وقال: لي ديوان من الشعر، وكلما أنشدت شيئًا منه للناس قالوا: أحسنت، ولكنك لم تبلغ رقة البها زهير. فهل لك أن تدلني على الرقة ما هي؟ فأجابه: إن الرقة التي تعنيها، إنما هي وضع خلقي، ولكني أشير عليك بمطالعة ديواني وديوان ابن نباته المصري.

فذهب وغاب عنه أيامًا، ثم أتاه وقال: قد فعلت. فقال: حسن أتمم هذا الشطر:

يابان ذات الأجرع ... ...

فقال التلعفري:

... ... سقيت غيث الأدمع

قال: حسن ما أكملت إلَّا أنه ناشئ عن تصور محزن، فاسمع كيف أكملت:

يـابـان ذات الأجـرع هل ملت من طرب معي

وقد جمع الشيخ بدر الدين محمد بن برهان الدين إبراهيم الشهير بالبدر البشتكي أشعارَ ابن نباته المصري في ديوان ضخم، طبع في سنة ١٩٠٥ بنفقة السري الأديب إبراهيم بك رمزي، وعني بتنقيحه الأستاذ الشيخ محمد القلقيلي الأزهري.

ولابن نباته كثير من الدواوين وكُتب الأدب، ذكرها المرحوم جرجي بك زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» منها: «القطر النباتي»، و«تعليق الديوان»، و«مطلع الفوائد ومجمع الفرائد»، و«سجع المطوق»، و«سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون»، و«ديوان الخطب»، و«سلوك دول الملوك»، و«سوق الرقيق»، و«تلطيف المزاج في شعر الحجاج».

وقد استشهد ابن حجة الحموي في جملة مواضع من كتابه «خزانة الأدب» بشعر ابن نباته، وشهد له بالتفوق في دقة الخيال، ورقة الاستعارة.

وأشهر قصائده القصيدة التي هنأ بها السلطان الأفضل، وعزاه في والده، ومطلعها:

هناء محا ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما

وقد وصفه الأستاذ الشيخ حسن نائل المرصفي في كتابه «آداب اللغة العربية» بقوله: «كان شاعرًا رقيقًا، له من المعاني ما لا بأس بها، إلَّا أن المتانة العربية كانت

بمعزلٍ عن كلامه في جميع ضروبه، وله ديوان كبير جمع كثيرًا من الأبواب طبع في مصر أخيرًا، وانتشر بين العديدين، إلَّا أني لا أرى أنه صادف عند الأُدباء منزلة، ومن أنعم نظره في كثير من مقطعاته رأى أنه كان به استعداد للماليخوليا؛ ولذلك انتهى به الأمر إلى ذلك في آخر حياته، ومات بالمارستان، رحمه الله.»

(١٧) قنطرة المقسي وجامعه

وفي أيام الملك الأشرف شعبان بن حسن (من سنة ١٣٦٢ إلى سنة ١٣٧٦م) أنشأ وزيره الصاحب شمس الدين أبي الفرج عبد الله المقسي قنطرةً، فعرفت باسم «قنطرة المقسي».

والوزير الصاحب شمس الدين باني هذه القنطرة كان قبطيًا، وأسلم في سنة ١٣٦٤م، وتولى الوزارة في أيام الأشرف شعبان وفي سلطنة الظاهر برقوق (من سنة ١٣٨٢ إلى سنة ١٣٩٨) الأولى خلفًا للصاحب سعد الدين بن البقري، وتوفي في سنة ١٣٩١م، وهو مجدد جامع المقس الذي أنشأه الحاكم بأمر الله، فصار يعرف بجامع المقسي، ويدعى الآن جامع أولاد عنان.

وكان الأهالي يكثرون من الخروج إلى هذه الناحية في أيام النيل للنزهة، وكان يحدث ما هو خارج عن الحد من صنوف التهتك والخلاعة، فقام الشيخ محمد، المعروف بصائم الدهر — سنة ١٣٨١م، وقد سمي باسمه أحد شوارع الزمالك — واستفتى شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني في هذا المنكر، فأفتى بوجوب منع الناس لكثرة ما ينتهك في المراكب من الحرمات، ويتجاهر به من الفحش، وأصدر الأميران علي وحاجي — ولدا السلطان شعبان — مرسومًا يمنع المراكب من الدخول في الخليج الناصري، وركِّبت سلسلة على قنطرة المقس، فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج، إلَّا أن يكون فيها غلة أو متاع.

ومما رواه ابن إياس في حوادث سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م أن جماعة من النصارى أكثروا من السكر والعربدة على مقربة من جامع المقسي، فشكاهم الشيخ محمد بن عنان إلى الوالي، فأمر بالقبض عليهم، ولكنهم فروا ولم يُمسَك منهم إلَّا واحد، فأمر الوالي بحرقه فأعلن إسلامه، وكان ذلك سببًا في نجاته. ا.هـ.

والظاهر أن هذه البقعة راقت لأهل الكأس من ذاك الحين، بدليل ما يحيط بالجامع حتى الآن من خمارات اليونان والأقباط، وفي مقدمتها خمارة كامل وخمارة عزوز.

(١٨) الخليج الناصري

وكان يسير بمحاذاة النيل في أرض الفجالة، الخليج الذي أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون (تولى من سنة ١٢٩٣-١٢٩٤م) ليوصل به ما يحتاج إليه في عمارته التي أنشأها في جهة سرياقوس بطريق النيل. وكان هذا الخليج يخرج من النيل على مقربة من القصر العيني إلى سراي الإسماعيلية إلى أبي العلاء إلى أولاد عنان، ويتلاقى مع الخليج الكبير عند جامع الظاهر.

(١٩) بركة بطن البقرة

وكانت في الفجالة بركة تدعى «بطن البقرة»، واقعة بين أرض الطبالة وأرض اللوق تجاه قصر اللؤلؤة ودار الذهب، وكان في موضعها بستان كبير يعرف ببستان المقسي، فأمر الظاهر بن الحاكم بأمر الله بإزالة هذا البستان، وأن يعمل بركة أمام منظرة اللؤلؤة، ثم هُجرت البركة في أيام المستنصر وبنى في موضعها عدة أماكن عُرفت بِحارة اللصوص، ثم أزيلت الأبنية في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله، وعُمِّق حفر الأرض، وسلط عليها ماء النيل، فعادت بركة.

حدثني سكرتير مصلحة التنظيم، قال: «وكنا قد قررنا إعادة اسم «حارة اللصوص»، وأعددنا لوحة الصاج المكتوب عليها الاسم، ولكنا راعينا السكان وهم من ذوي المكانة، فعدلنا عن التسمية.»

(٢٠) بركة الرطلي

وهناك بركة أخرى كانت واقعة في الجهة الشرقية اسمها بركة الرطلي، وصفها المقريزي فقال ما يؤخذ منه: «هذه البركة من جملة أرض الطبالة، عرفت ببركة الطوابين؛ من أجل أنه كان يعمل فيها الطوب، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصري، التمس الأمير بكتمر الحاجب من المهندسين أن يجعلوا حفر الخليج على الجرف إلى أن يمر بجانب بركة الطوابين هذه، ويصب في بحري أرض الطبالة في الخليج الكبير،

فوافقوه على ذلك، ومر الخليج من ظاهر هذه البركة، فلما جرى ماء النيل فيه روى أرض البركة، فعرفت ببركة الحاجب، وكان في شرقي هذه البركة زاوية بها نخل كثير، وفيها شخص يصنع الأرطال الحديد التي يزن بها الباعة، فسماها الناس بركة الرطلي، فلما جرى الماء في الخليج الناصري، وأنشئ الجسر بين البركة والخليج حكره الناس، وبنوا فوقه الدور، ثم تتابعوا في البناء حول البركة، وصارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصري، فتدور تحت البيوت وهي مشحونة بالناس، فتمرُّ أحوال من اللهو يقصر عنها الوصف، ويتظاهر الأهلون في المراكب بأنواع المنكرات من شرب الخمر، وتبرج الفاجرات، واختلاطهن بالرجال.»

وقد وصفها بعضهم بقوله:

في أرض طبالتنا بركة مدهشة للعين والعقل
ترجح في ميزان عقلي على كل بحار الأرض بالرطل

وكان إلى جانب بركة الرطل بركة أخرى ينبت فيها البشنين. وقد حفظت مصلحة التنظيم ذكر هذه البركة، بأن سمت السكة الموصلة من شارع الظاهر إلى مدرسة الفرير — كوليج دلاسال — سكة البشنين.

وقد بقيت آثار بركة الرطلي إلى مفتتح عهد الخديوي إسماعيل، فردمت من أطلال كوم الريش، والظاهر أن الموبقات أبت أن تفارقها، فكان حي الطبلي — المعروف باسم الطنبلي — مباءة للمفاسد الجهرية إلى عهد غير بعيد.

وكان على مقربة من بركة الرطلي مسجد قديم بني في دولة الناصر محمد بن قلاوون، ودفن فيه (سنة ١٣٤١م) الشيخ خليل الرطلي — الذي تنسب إليه البركة — ثم لعبت بالجامع يد الخراب، فجدده الصاحب سعد الدين بن إبراهيم بن بركة البشيري في دولة الملك المؤيد.

وولد البشيري سنة ١٣٦٦م، وتنقل في الخدم الديوانية حتى ولي أمر الدولة، إلى أن قتل الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، فاستقر بعده في الوزارة، وباشرها بضبط جيد لمعرفته الحساب والكتابة، ولكنه التجأ إلى أخذ الأموال بأنواع الظلم، فلما قتل الملك الناصر فرج، واستبد بالسلطنة الملك المؤيد الشيخ المحمودي صرفه عن الوزارة سنة ١٤١٣م.

(٢١) كوم الريش

وكان في الشمال الشرقي من الفجالة ضاحية تسمى كوم الريش، كانت من أجل منتزهات القاهرة، يسكنها الأعيان والأمراء، ويقيم بها نحو ٨٠٠ من الجند السلطاني، قال المقريزي: وأنا أدركت بها سوقًا عامرًا بالمعايش بأنواعها من المآكل، لا أعرف بالقاهرة مثله، وأدركت بها حمامًا وجامعين تقام بهما الجمعة، وموقف مكاريَّة، ومنارة لا يقدر الواصف أن يُعبر عن حسنها؛ لِما اشتملت عليه من كل معنى رائق بهج. وما برحت على ذلك إلى أن حدثت المحن من سنة ٨٠٦، فطرقها أنواع الرزايا حتى صارت بلاقع، وجهلت طرقها وتغيرت معاهدها.

(٢٢) إجمال ما تقدم

من هذه البيانات يتجلى لنا:

أولًا: أن النيل كان يصل إلى الفجالة، ويغطي القسم الجديد من العاصمة.

ثانيًا: أنه إذا ثبت ما ورد في كتب التقاليد من انتقال العذراء مريم مع سيدنا يسوع المسيح ويوسف النجار من المطرية إلى مصر القديمة، فلا يبعد أنهم يكونون قد مروا بالفجالة؛ لأنها الطريق المسلوكة على النيل بين البلدين.

ثالثًا: شهدت الفجالة الواقعة الأولى من الواقعتين اللتين جرتا بين المسلمين والرومان في مصر، وعلى مقربة منها تقاسم الفاتحون المسلمون ما غنموه من جيوش الروم.

رابعًا: كانت أعظم منتزه للخلفاء الفاطميين.

خامسًا: كانت مرفأ كبيرًا للأسطول المصري، ومعهدًا عامرًا لصناعة السفن.

سادسًا: كانت النقطة الأخيرة التي ينتهي إليها ذاك السرداب الطويل الذي يخترق جوف مدينة الفواطم من الأزهر إلى باب البحر.

سابعًا: كانت موضعًا لِمنح الخلفاء وعطاياهم بما يوزعونه على الأهالي من الأطعمة والنقود.

ثامنًا: كانت لما تحويه من مباهج الطبيعة مرتعًا للأنس واللهو، فمباءة لأهل التصابي.

بين القديم والحديث في أيام الفرنسويين

(١) تفصيلات العلامة جومار

لما احتل الفرنسويون مصر قسموا مدينة القاهرة إلى ثمانية أقسام — أثمان — يتراوح عدد ما في كل منها من الحارات والعُطف والأزقَّة بين ٢٥٠ و٤٠٠.

وقد دوَّن أسماءها العلَّامة جومار في الجزء الثامن عشر من كتاب «خطط مصر»، وذكر في القسم — الثُّمُن — الخامس منها اسم «الفجالة» والعطف والأزقة المجاورة لها، وهذا بيانها: «قنطرة الوز، سبيل العدوي، قنطرة الخروبي، زاوية العدوي، باب العدوي، وكالة الحمير، درب الطشطوشي، درب الفجالة، وكالة القمح، جامع الطشطوشي، جنينة الشيخ البكري، درب حاتم، عطفة أبو الريش، جامع الخربوطلي، جامع البكرية، الخليج السلطاني، باب البكرية، جنينة الخربوطلي، باب قنطرة البكرية، تل الطوابة، بركة الشيخة قمر، درب الطنبلي … إلخ.»

(٢) مذكرات الجبرتي

وذكر العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الفجالة في مواضع عدة من الجزء الثالث من تاريخه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، فقال مؤرخًا حوادث يوم ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ — وهي السنة الأُولى للاحتلال الفرنسوي: «… وأحدثوا — الفرنسويون — طريقًا فيما بين باب الحديد وباب العدوي عند المكان المعروف بالشيخ شعيب، حيث معمل الفواخير، وردموا جسرًا ممتدًّا ممهدًا مستطيلًا يبتدي من الحد المذكور، وينتهي إلى جهة المذبح خارج الحسينية، وأزالوا ما يتخلل ذلك من الأبنية والغيطان والأشجار والتلول، وقطعوا جانبًا كبيرًا من التل الكبير المجاور لقنطرة الحاجب، وردموا في طريقهم

قطعة من خليج بركة الرطلي، وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار المقابل لجسر بركة الرطلي، وأشجار الجسر أيضًا، والأبنية التي بين باب الحديد والرحبة التي بظاهر جامع المقس.»

وقال في حوادث شهر شوال سنة ١٢١٤ عند ذكر ما جرى بين الفرنسويين والعثمانيين في القاهرة: «... وعملوا — الفرنسويون — فتائل مغمسة بالزيت والقطران وكعكات غليظة ملوية على أعناقهم، معمولة بالنفط والمياه المصنوعة المقطرة التي تشتعل ويقوى لهبها بالماء، وكان معظم كبستهم من ناحية باب الحديد، وكوم أبي الريش، وجهة بركة الرطلي، وقنطرة الحاجب، وجهة الحسينية، والرميلة، فكانوا يرمون المدافع والبنبات من قلعة جامع الظاهر وقلعة قنطرة الليمون ويهجمون أيضًا، وأمامهم المدافع، وطائفة خلفهم بواردة يقال لهم السلطات يرمون بالبندق المتتابع، وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يلهبون بها السقائف، وضرف الحوانيت، وشبابيك الدور، ويزحفون على هذه الصورة شيئًا فشيئًا ...»

إلى أن قال: «... فدخلوا من ناحية باب الحديد وناحية كوم أبي الريش وقنطرة الحاجب وتلك النواحي وهم يحرقون بالفتائل والنيران الموقدة، ويملكون المتاريس، إلى أن وصلوا من ناحية قنطرة الخروبي، وناحية باب الحديد إلى قرب باب الشعرية، وكان شاهين أغا هناك عند المتاريس، فأصابته جراحة (كذا)، فقام من مكانه، ورجع القهقرى فعند رجوعه وقعت الهزيمة، ورجع الناس يدوسون بعضهم البعض، وملك الفرنساوية كوم أبي الريش ...»

وقال في تلخيصه لحوادث سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م: «... وانقضت هذه السنة بحوادثها وما حصل فيها، فمنها توالي الهدم والخراب وتغيير المعالم ... واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح، وباب القوس إلى باب الحديد، حتى بقي ذلك كله خرابًا متصلًا، وبقي سور المدينة الأصلي ظاهرًا مكشوفًا، فعمروه ورموا ما تشعب منه، وأوصلوا بعضه ببعض بالبناء، ورفعوا بنيانه في العلو، وعملوا عند كل باب كرانك وبدنات عظامًا وأبو ابًا داخلة وخارجة وأخشابًا مغروسة بالأرض مشبكة بكيفية مخصوصة، وركزوا عند كل باب عدة من العسكر مقيمين وملازمين ليلًا ونهارًا ... ومنها — من حوادث السنة — قطعهم الأشجار والنخيل من جميع البساتين والجنائن خارج باب الحسينية، وبساتين بركة الرطلي، وأرض الطبالة.»

(٣) إجمال لعلي باشا مبارك

ووصف المرحوم علي باشا مبارك حالة الفجالة في عصر الفرنسويين بقوله: «... وقبل مجيء الفرنسوية كانت أرض الفجالة صعبة يعسر المرور بها، ثم لما دخلت الفرنسوية أرض مصر ونظمت بعض الجهات، نظمت هذا الشارع وجعلته ممتدًا من قنطرة باب الحديد إلى قنطرة العدوي.»

(٤) آثار الفرنسويين في الفجالة

ومن هذا الإجمال يتبين أن الفرنسويين هم أول من نظَّم شارع الفجالة، ويعتقد البعض خطأً أن السور الباقية آثاره بين شارع الفجالة البراني وباب البحر هو سور قراقوش، والحقيقة أنه من صنع الحملة الفرنسوية، حدثني الباحث المدقق يوسف أفندي أحمد المفتش في لجنة الآثار العربية، قال: إن سور قراقوش كان عرضه ٣ أمتار و٦٠ سنتيًا، وهو ينتهي الآن بحصن واقع في مخبز بباب الشعرية، وقد استولت لجنة الآثار على هذا المخبز احتفاظًا بالأثر الذي فيه، أما السور الفرنسوي فإن عرضه لا يتجاوز ٦٠ سنتيًا، والفرق ظاهر في بناء السورين ونوع المونة المشيد بها كل منهما.

ومما يذكرنا بأعمال الفرنسويين في الفجالة «شارع البرج»، الذي يسميه الأهالي «شرم الفجالة»؛ إشارة إلى اختراق السور، وهذا البرج هو أحد الاستحكامات التي أقامها الفرنسويون في ظاهر البلد.

(٥) حي أعيان الأقباط في الفجالة

(٥-١) عائلة تادرس أفندي عريان

وكانت الفجالة في أول عهد محمد علي باشا، مؤسس العائلة السلطانية، أرضًا زراعية، ولم يكن أحد يستطيع اجتيازها بعد الغروب، فلما اتخذ عباس باشا الأول حي العباسية مقرًّا له، وكثر عدد قاصديها عن طريق الفجالة، وزاد عمرانها إنشاءُ سكة الحديد، وقرب المحطة منها.

وكان أول من أنشأ دارًا في الفجالة المرحوم تادرس أفندي عريان الخناني ابن المرحوم عريان إسحق الوزان، وكان من أعيان الأقباط في أيامه، خدم الحكومة

زمنًا، ثم اقتصر على العمل في أرزاقه الخاصة، والدار التي بناها لا تزال قائمة حتى اليوم في آخر شارع قصر اللؤلؤة بين مدرسة الآباء اليسوعيين وكوم الريش، ثم بنى دارًا داخلية سكنها أولاده؛ وهم: المرحوم عريان بك باشكاتب المالية، وسيدهم أفندي، وكركور أفندي، وباسيلي باشا الذي كان مستشارًا في الاستئناف الأهلي، وقد ترك أملاك أبيه، وابتنى قصرًا في شارع الظاهر على ناصية شارع كنيسة الروم الكاثوليك، وتوفي أثناء تدوين هذه الرسالة (يوم السبت ٧ ديسمبر سنة ١٩١٨).

(٥-٢) بيوت جاد شيحة وأولاده

وممن عاصروا المرحوم تادرس أفندي عريان في السكنى بالفجالة المرحوم جاد أفندي شيحة، وكان أيضًا من الأعيان، تقلب في الوظائف الأميرية من أيام محمد علي، وكان في آخر أيامه معاونًا في دائرة عباس باشا، وكانت له دار وسيعة الرحاب واقعة بين الدرب الإبراهيمي والجبروني — في مدخل شارع كلوت بك من جهة المحطة — ولا تزال هناك عطفة باسمه هي عطفة شيحة، فابتاع فدانًا من أرض الفجالة منذ ٨٠ سنة، وشيَّد فيه دارًا صغيرة لا تزال باقية إلى اليوم — رقم ١٤ شارع بستان الكافوري — ويسكنها حفيده لبنته صاحب العزة حبشي بك مفتاح.

وكان جاد أفندي شيحة متخذًا هذه الدار منتزهًا يقضي فيه مع عائلته فترات قصيرة، ثم بنى دارًا صغيرة أخرى، فلما شب أولاد الثلاثة؛ وهم واصف ودميان وميخائيل، أعجبوا بالفجالة وأحبوا السكنى فيها، خصوصًا بعد أن أنعم سعيد باشا على دميان بك جاد بفدانين من الأرض مجاورين لدار أبيه جاد شيحة.

وبلغت مساحة الأرض التي امتلكها أولاد جاد شيحة وذريتهم في الفجالة نحو أربعة أفدنة، يحدها شمالًا شارع بستان الكافوري، وجنوبًا شارع الفجالة العام، وشرقًا شارع علاء الدين، وغربًا شارع سيف الدين المهراني.

وترقَّى دميان بك جاد في وظائف الحكومة وعظم شأنه، فبنى العمارة «رقم ٥ في شارع سيف الدين المهراني»؛ حيث توجد الآن إدارة جريدة الأخبار ومطبعتها وإدارة جريدة مصر ومطبعتها ومنزل صاحبها، وهذه العمارة هي أولى العمارات الكبيرة التي أنشئت في شارع الفجالة من الجهة الغربية، ويرجع تاريخ إنشائها إلى ما قبل سنة ١٨٦٥م، ثم بنى آل جاد عمارات واسعة، منها دار خاصة في الجهة الشمالية

الشرقية، وبيوت للأجرة على الشارع العام، يحيط بمجموعها ويتخللها حدائق غنَّاء محاطة من الجهتين الغربية والشمالية بسور.

(٥-٣) سكان آخرون

وكان لعائلة القطاوي أرض خربة في الجهة الشرقية الجنوبية، أنشَئوا بها في أول عهد الخديوي إسماعيل إسطبلات ومخازن خشبية، ثم باعوها بسعر بخس لجماعة من أعيان الأقباط وكبار موظفي الحكومة منهم، الذين ضافت بهم حارة السقايين ودرب الإبراهيمي وسنقر، وطاب هم مناخ الفجالة، فكان في مقدمة من سكنوها وهْبة بك الجيزاوي باشكاتب المالية، وميخائيل أفندي أبو جرجس باشكاتب دائرة جلال باشا، وعياد أفندي حنا من كبار الموظفين في المالية، ونسيم بك شحاتة باشكاتب مصلحة سكة الحديد، ومنصور بك جرجس من موظفي سكة الحديد، وحنا بك ضبيع، وميخائيل أفندي عبد السيد صاحب جريدة الوطن، ومقار باشا عبد الشهيد العضو النائب عن الأقباط في مجلس شورى القوانين، وغيرهم ممن كان يساعدهم مركزهم على السكنى في هذه الضاحية، ويقدرون على الانتقال اليومي إلى دواوين الحكومة، فكان الأكابر يركبون عرباتهم الخاصة، والمتوسطون يقتنون الحمير أو يشتركون في أجرة عربة تقلهم يوميًّا إلى شارع الدواوين.

ومن أعيان السوريين الذين سكنوا وسط الأقباط في هذه الجهة منذ نشأتها الخواجا يوسف نصرة، وكان تاجرًا في البياضات، وله معاملة مع دائرة الخديوي إسماعيل، وتجمد له مبلغ من المال، فأعطته الدائرة بدله قطعة واسعة من أرض الفجالة واقعة على جسر الشارع العباسي، ومنه ابتاع الآباء اليسوعيون أرض مدرستهم بسعر المتر ٢٠ قرشًا.

(٥-٤) دميان بك جاد

ومن الغريب أن ينسى اسم دميان جاد، فلم يطلق على أحد الشوارع، وعذر مصلحة التنظيم في هذا الإهمال أن دميان بك توفي قبل أن توضع اللوحات.

وكان دميان جاد من كبار رجال الحكومة المصرية، تقلب في مناصبها من أيام عباس باشا الأولى، وتولى رياسة الكتَّاب في مصلحة الوابورات العزيزية، ثم عيِّن في آخر

أيامه باشكاتبًا للمالية[1] ووصفه المرحوم علي باشا مبارك في الجزء السادس من خططه بقوله: «… ومع تقدمه، وقبوله التام لدى الخديوي ووزارئه وأمراء الحكومة، كان على غاية من التواضع، محبًّا للجميع، مسعفًا لقاصديه من أي جنس كانوا، محسنًا محافظًا على أصول مذهبه، محببًا في الناس. ويوم وفاته حزن عليه جمهور الأقباط الأرثوذكسيين وكثير من المسيحيين، وتأسف عليه الخديوي وكثير من وزرائه وأمراء الحكومة وأهل مصر، وتعطل ديوان المالية وكثير من الدواوين يوم دفنه، وكان مشهد جنازته مهيبًا مؤثرًا جدًّا، تتقدمه جملة من العساكر الميرية المنتظمة بهيئة الحزن، ويتلوهم محفل جسيم جدًّا منتظم من البطريرك ومطران الأرمن وكافة قسوس الملة وقسوس الأرمن وأعيان القبط وغيرهم، ولفيف من المسيحيين من كل جنس وبعض معتبري الحكومة، وصلي عليه بالكنيسة الكبرى بالأزبكية.»

وقد عني بتفصيل تاريخه وأعماله في الحكومة حضرة صديقنا الباحث المحقق توفيق أفندي اسكاروس، وسينشره في الجزء الثالث من كتابه «تاريخ مشاهير الأقباط».

(٥-٥) ميخائيل بك جاد

وقد حفظت لنا مصلحة التنظيم حتى آخر سنة ١٩١١ اسم «ميخائيل جاد» في لوحات أربع وضعت في أكبر شارع موصل بين الفجالة وشارع عباس، وكان ميخائيل جاد موظفًا في وزارة المالية، وشارك سعادة المالي الماهر فيتا هراري باشا في إصلاح حسابات الحكومة المصرية بحسب البروجرام الذي سنَّه المستر فيتز جرالد مؤسس النظامات الحديثة للمالية المصرية.

ومن آثار المرحوم ميخائيل بك جاد في شارع الفجالة كنيسة العذراء التي شيدها في زاوية من أملاك عائلته، وخصص مبلغًا من ريع الوقف للإنفاق عليها.

[1] كانت بالمالية وظيفة رئيسية عمومية — بعد الناظر والوكيل — هي وظيفة باشكاتب عموم المالية، تقلدها أولاد عمر بك أحمد، وخلفه فيها علي بك الزيني، وبعده بشاي بك ميخائيل، وبعده وهبة بك الجيزاوي، وبعده دميان بك جاد، وبعده عريان بك تادرس، وألغيت الوظيفة قطعيًّا عند إحالته على المعاش — كتاب «الضرائب والأطيان» لجرجس بك حنين.

(٥-٦) تشابه في وقفيتين

وكما تشابه المرحومان عريان بك ودميان بك في الوجاهة والسكنى والوظيفة، فقد اقتفى ثانيهما أثر والد الأول في وقفيته الخيرية، وهي تقضي بحرمان كل أنثى في العائلة توريث خلفها مما ورثته عن عائلتها، سواء كان الورثة ذكورًا أم إناثًا.

وقد قرأت في مؤلفات المرحوم قاسم بك أمين أن من احتقار أهل الوجه القبلي لبناتهم أنهم يمنعون توريثهن، وسألت سعادة أندراوس باشا — والرجل من صميم الصعيد وأقدم عائلاته — عن صحة هذه الرواية، فقال: هذا حديث لا حقيقة له بالمرة، ولم نسمع عن حرمان البنات إلَّا في وقفيتي عريان ودميان.

(٥-٧) العلَّامة لينان باشا ده بلفون

وممن راقتهم الفجالة وسكنوها، قبل الاحتلال الإنكليزي، العلَّامة الشهير لينان باشا الفرنسوي صاحب المآثر الخالدة في هندسة القناطر الخيرية، وإنشاء قنال السويس. حضر إلى مصر سنة ١٨١٨ وهو في العشرين من سني حياته، بوظيفة رسام في بعثة يرأسها الكونت ده فوربين للبحث عن الآثارات، ثم التحق بخدمة لجنة إنكليزية تشتغل بالمسائل الجغرافية والري، فطاف أنحاء البلاد طولًا وعرضًا، ودوَّن بحثًا دقيقًا عن بحيرة موريس، وبتدبيره تم نقل المسلات الأثرية، التي أهداها محمد علي باشا إلى الحكومة الإنكليزية، من الإسكندرية إلى مدينة لندن.

وبدأ سنة ١٨٢٣ بجس أرض برزخ السويس، والنظر في أرض شبه جزيرة سينا، فقضى ١٨ شهرًا، وهو يتجول بين العريش والعقبة، ثم قضى زمنًا آخر على ساحل البحر الأحمر في المنطقة الواقعة بين السويس وجبل الزيت.

ثم سافر إلى لندن، وهناك قابل إبراهيم باشا ابن محمد علي، فعرض عليه الباشا الخدمة في الحكومة المصرية، فقبل الطلب مشترطًا أن يبقى سنة للبحث والتنقيب في جزيرة سينا، وعلى أثر ذلك عين مهندسًا للحكومة في الوجه القبلي سنة ١٨٢٨.

وشرع في النظر في إصلاح حالة الري في الوجه البحري سنة ١٨٣٣، ولبث يعمل في هذه المهمة بالاشتراك مع جماعة من المهندسين الفرنسويين حتى سنة ١٨٣٥، وفي ذاك الحين نظمت نظارة للمعارف والأشغال العمومية، وعين لينان أفندي مديرًا لقسم الأشغال، فوضع أساس وزارة الأشغال الحاضرة، ورتب مشروعات محمد علي وبدأ في

تنفيذها، ففي سنة ١٨٣٨ حَفر ترعة الزعفران، وسهل الملاحة في الشلالات بين أصوان والخرطوم، وفي سنة ١٨٣٩ أنشأ قنطرة على بحر شبين، وبينا هو مهتم بتنجيز هذه المشروعات استدعي إلى سوريا، وبعد أن عاد منها أتم خريطة الفيوم والوجه البحري، ووضع مشروع حفر قنال السويس مستندًا في عمله إلى المباحث التي قام بها رجال بعثة نابليون والمسيو ليبير والمسيو مينو.

وحضر الدوق دومونبانسييه إلى القطر المصري في سنة ١٨٤٥، فزار برزخ السويس مع المسيو لينان، فكانت هذه الزيارة النواة التي بنى عليها تنفيذ مشروع القنال، فتألفت لذلك جمعية دولية كان المسيو لينان مرشدها في كل ما يختص بالبرزخ وبحيراته ومناسيبه.

وفي سنة ١٨٤٩ عهد إلى المسيو لينان إنشاء طريق للعربات بين القاهرة والسويس، وفي سنة ١٨٥٠ كلف وضع نظام لتوزيع المياه في القاهرة، ثم انتدب نائبًا عن الحكومة المصرية لمفاوضة شركة قنال السويس بمدينتي لندن وباريس.

وفي سنة ١٨٥٦ أتم مشروع مد المياه الحلوة من النيل إلى قنال السويس، وكان في أيام سعيد باشا يد الحكومة العاملة في حفر القنال.

وفي سنة ١٨٦٢ عُيِّن مديرًا عامًّا للأشغال العمومية، ولبث في هذه الوظيفة حتى آخر سنة ١٨٦٤، حيث طلب إحالته إلى المعاش وبقي ملازمًا داره حتى سنة ١٨٦٩، فاستدعته الحكومة، وعينته ناظرًا للأشغال، وأنعم عليه برتبة الميرميران الرفيعة.

ومن أعماله المهمة وهو في نظارة الأشغال إنشاء ميناء الإسكندرية وكوبري قصر النيل، ولما أتم أربعين سنة في خدمة الحكومة أعطي معاشًا كاملًا، فشرع في وضع كتابه الكبير المسمى «مذكرات عن أعمال المنافع العمومية في مصر من أقدم الأزمان إلى الوقت الحاضر»، وهو مؤلَّف كبير مرفق بتسع خريطات ملونة، ثم وضع كتابًا آخر عن مناجم الذهب في مصر، وترك عدة أوراق في شئون جغرافيَّة وهندسية، وتوفي سنة ١٨٨٣.

وجاء في قاموس الجغرافيا للمسيو سان مارتين وروسليه تحت كلمة «لينان» Linant ما تعريبه:

> جزيرة صخرية في بحيرة فيكتوريا نيانزا عند مدخل خليج مورشيسون في الجهة الجنوبية من البحيرة بين موفو وأومبيريو، وقد أطلق عليها الرحالة ستانلي اسم «لينان»؛ إحياء لذكرى مواطننا لينان ده بلفون.

وفي المكتبة السلطانية تحت رقم ١٧٧٥ رسالة مطبوعة في ٢٠ صفحة عنوانها «تركة لينان ده بلفون، فهرست خزانة الكتب»، وتشمل هذه الفهرست على أسماء نحو ٤٠٠ مؤلف في العلوم والأعمال الهندسية، والصناعة، والفنون، والتاريخ، والجغرافية، والرحلات، والقواميس، ودوائر المعارف، والمؤلفات المختلفة، والخرائط، ومجموعات الصور والروايات.

(٦) تجديد ذكرى الأقدمين

(٦-١) أقدم مالك وأقدم ساكن

لما تمَّ تنظيم الفجالة الجديدة، وتقسيم أرض بركة الرطلي سميت شوارعها وحاراتها بأسماء أقدم من أنشَئوا فيها عمارات أو سكنوها قبل غيرهم؛ فأطلق على شوارع القسم الغربي الشمالي الأسماء الآتية: حارة ميخائيل جاد، حارة نسيم بك، عشش الخربوطلي، شارع اليسوعية، عطفة عبد العال، شارع مقار بك — باشا — عبد الشهيد، حارة إلياس صوصه، الساقية الحلوة، دهليز الملك، الزهار، شارع ميخائيل أبو جرجس، شارع القطاوي، شارع عريان بك، شارع إلياس.

وأطلق على شوارع القسم الشرقي الشمالي الأسماء الآتية: حارة حبيب شلبي، حارة جرجس فرج، حارة سليم فرج، حارة عتابي، حارة أحمد نافع، عطفة عبد الملاك، عطفة يوسف خزام، عطفة متولي المهندس، عطفة بدر بك الحكيم، شارع بطرس باشا … إلخ.

(٦-٢) لجنة الأحياء

ثم رأت مصلحة التنظيم أن تحيي أثر مشهوري الأقدمين بتسمية الشوارع بأسمائهم، أو بأسماء الخطط القديمة، وألفت لذلك لجنة في سنة ١٩٠١، ولكنها لم تلبث طويلًا حتى حلت بوفاة بعض أعضائها، وانتقال البعض إلى وظائف خارج العاصمة، فأعيد تأليفها في سنة ١٩٠٩، وانتظم في سلكها المسيو موني، وداود أفندي عبد السيد المهندس، وأتمت تسمية شوارع الفجالة وحاراتها وتجهيز اللوحات اللازمة لها في سنة ١٩١١.

(٦-٣) ظروف غير مناسبة

ويعلم المتبعون للتاريخ الحاضر أنه في تلك السنة انعقد المؤتمر القبطي في أسيوط، والمؤتمر المصري في القاهرة، وعلى أثر إرفضاضهما شرع عمال مصلحة التنظيم في رفع اللوحات القديمة بشوارع الفجالة ووضع اللوحات الجديدة، فهاج الأقباط وماجوا، وخيل إلى الكثيرين منهم أن لهذا العمل علاقة بالمؤتمرين، ونشرت كل من جريدة مصر وجريدة الوطن مقالة مسهبة في الموضوع.

(٦-٤) أقوال جريدة مصر

فقالت جريدة مصر الصادرة في ٦ مايو: كان لتغيير أسماء شوارع الفجالة وقع سيئ جدًّا في نفوس جميع المسيحيين، الذين اعتبروا العمل على حقارته الذاتية عملًا مدهشًا، يشف عن إحساس لا يليق أن تتصف به حكومة راقية في هذا الزمان.

والذي زاد في مبلغ تأثيره أنهم أبدلوا أيضًا لوحة شارع مدرسة اليسوعيين بلوحة أخرى باسم شارع «بستان المقسي»، فكأن الغرض هو محاربة المسيحية عمومًا، لا الأقباط خصوصًا.

قد يقال إنه ربما لا يكون هذا العمل مقصودًا بالذات، بدليل أنهم غيَّروا أيضًا أسماء إسلامية مع الأسماء المسيحية، والرد على هذا القول بسيط؛ هو أنهم لم يغيروا الأسماء الإسلامية بأسماء مسيحية، بل غيروها بأسماء إسلامية مثلها، وأما الأسماء المسيحية فلم يخطئوا في واحد منها، ويغيروه باسم مسيحي بدله.

(٦-٥) أقوال جريدة الوطن

وقالت جريدة الوطن: وإنما لفت الناقدون الأنظار إلى هذه المسألة للدلالة على ما فيها من سخافة أولًا، وفساد ذوق ثانيًا.

فهي من الجهة الأولى لا تؤدي إلى الغرض الذي يزعمونه؛ وهو إعادة بعض الحوادث التاريخية إلى الأذهان، وإلَّا فمَن مِنَ الناس يسير في إحدى حواري الفجالة مثلًا، ويرى على إحداها اسم حارة «بركة بطن البقرة»، فيستفزه هذا الاسم إلى التفتيش في بطون التواريخ القديمة، لكي يستدل على أصل هذه التسمية، ويعرف أين كان بطن البقرة هذا؟ اللهمَّ إلَّا إذا كان عالمًا أثريًّا واقفًا حياته على التنقيب والبحث عن الآثار القديمة،

وما كل الناس بعلماء، ولا لمثل هذا وُضعت أسماء الشوارع والبلاد، وإنما وضعت لهداية السائر وإرشاد السابلة، ولا نبالغ إذا قلنا إن تغيير أسماء مفهومة معروفة منذ سنين بأسماء تكاد تكون أعجمية، قد أفسد الغرض منها وأضلَّ الناس وحيَّرهم إلخ إلخ.

(٦-٦) مذكرة مصلحة التنظيم

فرأت مصلحة التنظيم إزالة لهذا الريب أن تنشر مذكرة حاوية أسباب هذا التغيير، وعهدت في تدوينها إلى المسيو موني، وأرسلت صورًا منها إلى الصحف المحلية، فنشرها البعض برمتها، ولخصها البعض، وأهملها الكثيرون.

وقد دبج المسيو موني هذا التقرير بالإشارة إلى لجنتي الأحياء، ثم قال ما خلاصته: «لم تراع اللجنة الأديان في التسمية؛ بدليل تسميتها أحياء باسم يعقوب القبطي، وبهاء الدين بن حنا، وأرمانوسة المصرية، وشجرة مريم، والبلسم، ولما شرعت في تسمية شوارع الفجالة أكثرت من البحث في الكتب التاريخية؛ مثل: الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك، وخطط المقريزي، وابن دقماق، فلم يوجد بها شيء أثري للأقباط، وكان الباحث عن الأسماء المهندس داود أفندي عبد السيد.»

وختم المسيو موني التقرير بقوله: «وأخيرًا فكَّرتُ في مقابلة حضرة جندي بك إبراهيم صاحب جريدة الوطن؛ لعلمي أن له علاقة كبرى ببطريكخانة الأقباط الأرثوذكس، عسى أن يحصل لنا على شيء في هذه البطريكخانة من الآثار التي يهم الجمهور تسمية الجهات التي كانت بها بأسمائها، فأخذت معي صديقًا له ليقدمني لحضرته؛ وهو حضرة مسيحة أفندي ميخائيل، باشكاتب مصلحة الإحصاء الآن. وفعلًا قابلنا حضرته، ووعد أن يوافينا بشيء من ذلك، ولكنه اكتفى بأن شكر للحكومة عملها في أحد أعداد جريدته، ولم يوافنا بشيء من البطريكخانة حتى الآن.»

(٦-٧) الأسماء القديمة المجددة

وقد أزالت مصلحة التنظيم أسماء حارات القسم الغربي كلها، وأبدلتها بالأسماء الآتية؛ وهي: شارع الخليج الناصري، السلطان شعبان، سراج الدين، الوزير شمس الدين، سيف الدين المهراني، بستان الكافوري، بستان المقسي، بستان المهاميزي، بركة بطن البقرة، الوزير علاء الدين، ابن حبيب، قلعة المقسي، قصر اللؤلؤة، منظرة اللؤلؤة، بكتمر الحاجب، المهراني، كوم الريش، أبو الريش، بستان التاج.

وأضافت اسمين عصريين؛ وهما: شارع كنيسة الروم الكاثوليك، وأرض لينان باشا.

أما القسم الشرقي، فقد أَبدلت فيه اسم حارة حبيب شلبي بشارع حبيب شلبي، ورَفعت كلمة «المهندس» من عطفة متولي المهندس وجَعلتها حارة، وكلمتي «بدر بك» من عطفة بدر بك الحكيم وجعلتها شارعًا، وأبقت اسم شارع بطرس باشا، واسم شارع غالي — وهو غالي بك نيروز والد بطرس باشا — أما الأسماء القديمة المجددة فهي: نسب، سكة البشنين، بركة الرطلي، ابن رزيك، الوزير الصاحب، البشيري، ابن بركة، بركة الحاجب، بركة الطوابة، أرض الطبالة، ابن مجير، أبا الحارث، الشيخ خليل.

(٦-٨) معلومات عن الأسماء المجددة

وقد فصلت كل ما يهم عن الأماكن والأشخاص الذين سميت بهم شوارع الفجالة وحاراتها، ولكن بقيت منها أسماء رأيت أن آتي ببيان وجيز عن كل منها:

السلطان شعبان: هو الأشرف زين الدين أبا المعالي شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون، وهو السابع عشر من أمراء دولة المماليك الأولى، حكم ١٤ سنة وشهرين وبضعة أيام (من سنة ١٣٦٢–١٣٧٦م) معظمها سكينة وسلام، وفي السنة الثالثة من حكمه أصيبت مصر وسوريا بقحط عظيم، فأكل الناس الكلاب والقطط، بل أكل بعضهم أولاده، وفي السنة الحادية عشرة من حكمه أصابت البلاد حروب أهلية، انتهت بأن قتل الأمراء السلطان شعبان خنقًا.

ابن رزيك: هو أبو الملك الصالح، كان من الشيعة الإمامية، حضر إلى مصر، وترقى في الخدم حتى ولِّي منية ابن خصيب — مديرية المنيا — ثم قبض على أعمال الحكومة في أيام العاضد بن يوسف — آخر الخلفاء الفاطميين من ١١٦٠–١١٧١م — ولم يكن هذا الخليفة بالغًا رشده، فتزوج ابنة طلائع، وسماه — الملك — ثم تآمر أهل القصر، وفي طليعتهم عمة الخليفة، على هذا الوزير الملك، وقتلوه في قصره.

وكان ابن رزيك شجاعًا، جوادًا، محبًّا لأهل الأدب والعلم، شديد المغالاة في التشيع، وهو الذي نقل رأس الحسين من عسقلان إلى القاهرة.

ابن مجير: هو شاور بن مجير السعدي، كان واليًا على قوص، ثم ثار على العادل رزيك بن طلائع وقبض عليه وقتله، وأجلس نفسه وزيرًا مكانه، وبقي في الوزارة حتى ثار عليه ضرغام، ففر شاور إلى الشام، ثم عاد إلى مصر مع شيركوه، واتفق مع مُرَّى

ملك بيت المقدس. ومن أعمال شاور بن مجير حرقه مدينة الفسطاط (سنة ١١٦٨م)، حتى لا يأوي إليها الصليبيون، فبقيت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يومًا، ثم قتله شيركوه بالاتفاق مع الخليفة العاضد.

بكتمر الحاجب: كان من رجال الناصر محمد بن قلاوون، وترقى في الوظائف حتى بلغ الوزارة، ثم قبض عليه الملك واعتقله سنة ونصف سنة، وأخذ كثيرًا من ماله، ثم أفرج عنه وعيَّنه نائبًا على صفد، وأعاده إلى مصر. ومع أنه كان خبيرًا بالأمور بصيرًا بالحوادث، فقد اشتهر بالبخل والجشع في جمع المال بكل طريقة، ومن أعماله قنطرة دعيت باسم «قنطرة الحاجب»، كانت موصلة بين أرض الطبالة ومنية السيرج.

الوزير الصاحب: هذا لقب من كان يتولى الوزارة من أرباب الأقلام، ولم يكن يلقب به أحد من الوزراء أرباب السيوف، وأول من لُقِّب به الصاحب إسماعيل بن عباد أيام وزارته لمؤيد الدولة صاحب بلاد الري.

(٦-٩) مواضع الأمكنة

يخطئ من يظن أن لوحات مصلحة التنظيم تدل دلالة يقينية على الأماكن التي وضعت فيها؛ لأنه يعسر تصور اجتماع الخليج الناصري وبركة بطن البقرة وبستان المهاميزي ومنظرة اللؤلؤة كلها في مساحة لا تزيد على ١٠ أفدنة، بل المقصود من وضع هذه اللوحات هو الذكرى والإشارة إلى قرب الأماكن المشار إليها من الفجالة أو متاخمتها لها. ولو أردنا تتبع آثار الخليج الناصري وحده لسمينا باسمه جزءًا كبيرًا من العاصمة، يحاذي ترامواي مصر القديمة من القصر العيني حتى أبي العلا، ومنه إلى شارع عباس إلخ.

الفجالة حديثًا

(١) منشئ شارع الفجالة ومنظمه

منذ ٥٤ سنة لم يكن الداخل إلى شارع الفجالة من جهة المحطة يرى غير منزل واحد هو منزل المرحوم دميان بك، حيث توجد الآن إدارة جريدة الأخبار، وبعد أن يسير مسافة طويلة متجهًا إلى الشمال يرى منزل المرحوم تادرس أفندي عريان، وحول هذين البيتين من كل جهة المزارع، والمستنقعات، والغيطان يفصل بينها وبين باب البحر السور الفرنسوي الذي وصفناه قبلًا.

وكان أهالي باب البحر وبين الحارات يقذفون فضلاتهم وأقذارهم خلف السور من الجهة الشمالية — حيث يوجد الآن شارع الفجالة — فتكوَّن هناك تل اسمه تل العقارب[١] كان المزارعون يأخذون منه السماد لتسميد أراضيهم، وأخصها غيطان الفجل المجاورة.

[١] كان في القاهرة تل آخر بهذا الاسم واقع فيما بين شارع خيرت وشارع السيدة زينب، حيث توجد الآن المدرسة السنية، ولما جاء الفرنسويون إلى مصر أحدثوا فيه أبنية وكرانك وأبراجًا، وضعوا فيها عدة من آلات الحرب والعساكر المرابطين — كما روى العلامة الجبرتي.

وعلى هذا التل أعدم قاتل الجنرال كليبر، وهو سليمان الحلبي، والثلاثة الذين ساعدوه على إتمام الجريمة؛ وهم: علي محمد الغزي، وعبد الله الغزي، وأحمد الوالي. أما طريقة التنفيذ، فقد جاءت في قرار الإعدام وهو أن «تحرق يد سليمان الحلبي اليمنى، وبعده يتخوزق، ويبقى على الخازوق لحين تأكل رمته الطيور»، أما شركاؤه «فتقطع رءوسهم، وتوضع على نبابيت، وجسمهم يحرق بالنار، ويكون ذلك قدام سليمان الحلبي قبل أن يجري فيه شيء.» ا.هـ بحروفه.

ففي سنة ١٨٦٥ اشترى الخواجا حبيب سكاكيني — الآن صاحب السعادة الكونت حبيب سكاكيني باشا — أرض التل المذكور ابتداء من شارع البرج، حتى مدخل شارع الفجالة من جهة المحطة، وتعهد للحكومة من جهة أُخرى بردم الجهة الواقعة في أول الشرابية، حيث الآن مخازن سكة الحديد، فصار ينقل الأتربة من التل، ولا يخلو مقطف من عقرب أو أكثر، ويلقي بها في الشرابية حتى أزالَ التل، وجعله مساويًا للأرض.

(٢) عشرون بدل ثمانية

فلما أتم هذه المهمة الشاقة، رأت الحكومة إدخال شارع الفجالة في التنظيم، فقررت أن يكون عرض الشارع ثمانية أمتار، ولكن الخواجا حبيب سكاكيني أدرك ببصيرته الوقادة أن مستقبل الفجالة سيكون زاهرًا؛ لأنها نقطة الاتصال بين البلد والعباسية، وأنه إذا كان عرض الشارع ثمانية أمتار فقط، فإنه لا بد أن يضيق بالمارين، فكتب عريضة ضمَّنها رأيه الخاص في الموضوع، ووقف عند قنطرة الليمون منتظرًا مرور موكب الخديوي إسماعيل، فلما اقترب منه الموكب رفَع العريضة ملوِّحًا بها في الهواء، ولمحها سمو الخديوي، فأمر بأحد ياوراته بأن يأخذ العريضة من رافعها.

وبعد ساعتين استدعي الخواجا حبيب سكاكيني إلى سراي قصر النيل، حيث قابل سمو الخديوي وعرض عليه رأيه، فدعى مهندس التنظيم وهو فرنسوي، فذكر أنه إذا جعل عرض الشارع عشرين مترًا، فلا مفر من هدم زاوية الشيخ سيف الواقعة في وسط الشارع، وعلى أثر ذلك صدرت الإرادة الخديوية بجعل عرض الشارع عشرين مترًا.

(٣) تعمير الشارع

وكان سعادة حبيب باشا سكاكيني أول من شيد عمارة في الشارع الخارجي، وهذه العمارة هي التي توجد فيها الآن بوستة الفجالة ودائرة السكاكيني.

وأقبل أعيان السوريين على الشراء من أرض السكاكيني قطعًا، فكان أول من اشترى الخواجات يوسف الأونياطي، وخليل الزهار، وحنا قدسي، وحنا موسى، وإخوان مايسترو. وتبعهم الأقباط، ومنهم آل الخياط، وسعد بك عبده، والخواجا رزق لوريا.

ولما رأى السكاكيني نجاح مشروعه في تل العقارب اشترى القطعة المقابلة للقسم الغربي منه، وهي المحصورة بين شارع الفجالة وقسم البوليس وشارع عباس وشارع

سيف الدين المهراني، وكانت من أملاك الخاصة الخديوية، ثم نازعه فيها جماعة من المستحقين في وقف أهلي، وانتهى الأمر بفوز السكاكيني، فأحسن تخطيط تلك البقعة، وتنظيمها.

ومن هذا البيان يرى القارئ أن الفضل في إنشاء شارع الفجالة، وجعله في هذا الاتساع عائد بلا مراء إلى سعادة الكونت سكاكيني باشا، ولولاه لما كان هناك فرق يذكر بين شارع الفجالة وشارع باب البحر، ولتحول خط الترام إلى شارع العباسية، ولم يكتف بتنظيم شارع الفجالة، بل واصل العمران إلى الجهة الشمالية، وبلغت مساحة الأراضي إلى مهدها، وقسمها للبناء نحو نصف مليون متر مربع.

(٤) وصف الفجالة لعلي باشا مبارك

وقد وصف المرحوم علي باشا مبارك الفجالة الحديثة في خططه، فقال: «شارع الفجالة: ابتداؤه من آخر شارع الزعفراني وأول شارع باب الشعرية، وانتهاؤه قراقول باب الحديد وطوله ألف متر ومائة وخمسون مترًا، وبه من جهة اليمين حارة الفجالة غير نافذة، وبها عدة بيوت، ثم سكة الإسماعيلية، ثم سكة لبنان بك، وبأوله جامع سيدي علي المنشلي بالقرب من جامع الدشطوطي، وبه ضريح سيدي علي المذكور وشعائره غير مقامة، وتحت نظر الديوان وبآخره قراقول باب الحديد المستجد مقيم به معاون ثمن الأزبكية وبيت الصحة الطبية، وهذا القراقول أُنشئ في زمن الخديوي إسماعيل باشا مدة نظارتي على ديوان الأشغال، والذي عمل رسمه الأمير حسين باشا كُشك المعروف بالمعمار، وهذا الشارع جميعه من الأرض المعروفة بأرض الطبالة.

وفي الأزمنة القديمة كان السالك فيه من جهة باب الشعرية، يجد عن يمينه القرية المعروفة بقرية كوم الريش، وقد صارت بعد نقلها تلالًا عالية، وبقيت كذلك إلى أن أزيلت في زمن الخديوي إسماعيل مدة نظارتي على ديوان الأشغال.

وكان السالك فيه أيضًا يبصر على بعد البركة المعروفة ببركة الرطلي، وقد ردمت بعد إزالة التلول.

وانتظمت هذه الخُطة من ابتداء ترعة الإسماعيلية إلى سور البلد عرضًا، ومن جامع أولاد عنان إلى بوابة الحسينية طولًا، وبيعت الأرض المملوكة للحكومة، وبني فيها وفي غيرها من أرض الأهالي مبان هائلة وقصور فاخرة، تحيط بها بساتين نضرة وحدائق مستحسنة. وانقسمت إلى حارات منتظمة وشوارع معتدلة، فأصبحت نزهة للناظرين

وبهجة للطالبين، وكثرت الرغبة في سكناها لحسن موقعها وجودة هوائها، وارتفعت قيمتها حتى بلغ ثمن المتر المسطح في أرضها نحو الثمانين قرشًا، بعد أن كان لا يساوي قرشًا واحدًا.»

(٥) الأقسام الثلاثة

وإذا تتبعنا خطى المرحوم علي باشا مبارك رأينا شارع الفجالة منقسمًا إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: سكة الفجالة، وتبتدئ من شارع الزعفراني عند تراماواي الخليج، وفيها حارة الفجالة، وهذه السكة هي التي كانت معروفة من أيام الفرنسويين، وأطلق عليها اسم «الفجالة» لتوصيلها إلى الأراضي التي تزرع فجلًا، ولا يزيد عرضها على ثمانية أمتار، وبيوتها قديمة متلاصقة أغلبها صغير، ومعظم سكانها من الوطنيين المسلمين بينهم عدد قليل من فقراء اليونان والسوريين.

القسم الثاني: الفجالة القديمة، وتبتدئ من آخر سكة الفجالة القديمة في نقطة مقابلة لميدان بركة الرطلي، وتنتهي عند شارع البرج، وعرضها ١٢ مترًا تقريبًا، ويمر بها ترام السكاكيني داخلًا إلى شارع حبيب شلبي، وخارجًا منه في طريقين، وبيوتها كبيرة، مصدَّر بعضها بحدائق، ولا تزال فيها عمارات متهدمة خربة مشوهة لمنظر الشارع، وفي هذا القسم مدرستا الأمريكان «للبنات» والروم الكاثوليك «للصبيان»، وكنيستا الكلدان الكاثوليك، والأقباط الكاثوليك.

القسم الثالث: الفجالة الجديدة، وتبتدي من مدخل شارع البُرج حتى باب الحديد، ويبلغ عرض الشارع ٢٠ مترًا، وتمر فيه قطارات ترام العباسية والسكاكيني ومصر الجديدة «الأبيض»، ويمتاز هذا القسم على سابقيه بفخامة مبانيه، واتساع الشوارع المتفرعة منه، وازدحامه بالقهوات الكبرى، والمكاتب، والصيدليات، ومكاتب المحامين، وعيادات الأطباء، وكان لأكثر بيوته حدائق غناء، فحولوها أصحابها إلى دكاكين للانتفاع من أُجورها، فبعد أن كان الشارع روضة غناء انقلب سوقًا مزدحمًا بأنواع التجارات.

(٦) مميزات الفجالة الحديثة

كما امتاز مدخل الفجالة قديمًا بدار الصناعة وبساتين الخلفاء ومناظرهم، فإن هذه البقعة قد امتازت حديثًا على بقية أحياء العاصمة بأمور لم تجتمع في حي واحد غيرها وهي:

أولًا: مجتمع كنائس الطوائف المسيحية الثلاث.

ثانيًا: ملتقى الأقباط والسوريين المشتغلين بالإصلاح الطائفي والسياسي، وأوسع مجال لمنتدياتهم، وجمعياتهم الخاصة، ومؤسساتهم الخيرية.

ثالثًا: أهم مركز للمدارس المسيحية المختلفة.

رابعًا: مركز عظيم للنهضة الأدبية، ومسكن كثيرين من الأدباء والمشتغلين بصناعة القلم.

خامسًا: مركز قهوات وأندية عامة للأدباء، وأهل الفضل.

(٧) كنائس الفجالة

(٧-١) كتدرائية الروم الكاثوليك ودارهم البطريركية

كان لطائفة الروم الكاثوليك بالقاهرة ثلاث كنائس: الأولى في درب الجنينة، وهي أقدم كنائسهم بُنيت في أيام محمد علي، والثانية في شارع جزيرة بدران «قصور الشوام» بشبرا، والثالثة في قنطرة الدكة، وتعرف بالكنيسة الرضوانية، ثم نما عدد أبناء الطائفة في الربع الأخير من القرن الماضي، وضاقت بهم الكنائس الثلاث، ففكروا في إنشاء كتدرائية تليق بمقامهم.

وكان حضرة صاحب السعادة الكونت حبيب سكاكيني باشا في مقدمة من فكروا في هذا المشروع، فابتاع سراي المرحوم لينان باشا وحديقتها الكبرى، وضم إليهما أرضًا واسعة، وقدم الجميع إلى البطريكخانة بثمن زهيد لبناء الكتدرائية، فقام خلاف بين أعيان الطائفة لعدم ارتياح بعضهم لمركز الفجالة، وعرض هذا الخلاف على سعيد الذكر البطريرك غريغريوس يوسف، فأثبت رأي القائلين بالبناء في الفجالة.

وعقبه على كرسي البطريركية المرحوم البطريرك بطرس الرابع الجريجيري، وحضر إلى القاهرة في سنة ١٨٩٩، فثبَّت رأي سلفه المرحوم غريغوريوس؛ لأن الأرض اللازمة

للبناء موجودة في الفجالة، وإذا أريد التشييد في جهة أخرى فلا بد من أرض يعوزها المال الكثير.

ووضع غبطته أساس الكتدرائية في حفلة شائقة، وأتم بناء الجدران بالمال الذي اكتتبت به الطائفة، وفي مقدمتها سعادة سكاكيني باشا.

وتوفي البطريرك الجريجيري سنة ١٩٠١، وخلفه المرحوم البطريرك كيرلس جحا الثامن، ووصل إلى القاهرة سنة ١٩٠٢، فأتم التوفيق بين الطرفين على قاعدة الرضاء بالواقع، وأقبل الخيِّرون على الاكتتاب، واستؤنف التشييد، فتم بناء الكنيسة سنة ١٩٠٦، فهي أحدث كنائس الفجالة عهدًا — ما عدا كنيسة السريان الكاثوليك — وأفسحها بوجه الإجمال.

(٧-٢) كنيسة الأقباط الأرثوذكس

كثر الأقباط الأرثوذكس في الفجالة بعد الاحتلال الإنكليزي، فرأى المرحوم ميخائيل بك جاد أن يبني لهم كنيسة، وتبرع بالأرض اللازمة لذلك، وخاطب في الأمر غبطة الأنبا كيرلس، فشجعه وتوَّج قائمة الاكتتاب بمبلغ من المال، وتولى ميخائيل بك جاد الجمع والإشراف على العمارة، فأتم بناء الكنيسة وافتتاحها في سبتمبر سنة ١٨٨٤، وبلغت نفقاتها حوالي ألفي جنيه، وكان البناء قاصرًا على الهيكل وصحن الكنيسة والمقصورة الغربية الخاصة بالسيدات.

وتوفي المرحوم ميخائيل بك جاد سنة ١٨٩٠، فتولى كبير أبنائه حضرة جوني أفندي جاد إتمام الكنيسة، فشيد مقصورة السيدات البحرية، والقسم الأعلى من محل القربان، والجرس، وبلغت نفقات ذلك نحو ألف جنيه.

ومساحة الأرض المشيدة عليها الكنيسة ٦٠٠متر، وهناك ١٥٠ مترًا أخرى ملاصقة لها يمكن أن يوسع بها البناء في أي وقت.

وكان أول من سيم قسًّا لكنيسة الفجالة القمص بطرس سليمان قسيس كنيسة الملاك البحري، ثم خلفه فيها القمص بشاي مقار الذي نقل مؤخرًا إلى إحدى كنائس مصر القديمة، وقد عرف الرجلان بمظاهرتهما لرجال الإصلاح القبطي في حركة سنة ١٨٩٢.

وتمتاز كنيسة الفجالة على بقية كنائس الأقباط في العاصمة باستمرار الوعظ فيها مرتين في الأسبوع؛ ففي يوم الأحد يعظ الشماس فرح أفندي جرجس، أو من ينوب عنه من وعاظ جمعية الإيمان، وفي يوم الأربعاء يعظ الشماس أمين أفندي باسيلي، واعظ

جمعية ثمرة التوفيق، والإقبال على الوعظ عظيم جدًّا يشترك فيه الرجال والنساء، ويجمع فرح أفندي عظاته في مجلة خاصة اسمها «غذاء النفوس».

(٧-٣) كنيسة الأقباط الكاثوليك

رأى الأب أندراوس برزي منذ عشرين سنة ونيف أن أبناء طائفة الأقباط الكاثوليك قد تكاثروا في الفجالة والظاهر، ففكر في بناء كنيسة بينهم، وخاطب في ذلك بعض أعيان الطائفة، فتبرع له الخواجات يوسف وفرنسيس خزام بقطعة أرض فضاء من ملكهما في شارع أبي الريش، وشرع الأب برزي بجمع المال من هنا ومن هناك، حتى تمَّ له ما أراد، وشيَّد كنيسة صغيرة باسم «الأنبا أنطونيوس» جامعة بين البساطة المتناهية والمتانة.

(٧-٤) كنيسة اليسوعيين

واقعة في مدخل مدرستهم الشهيرة، وتمتاز هذه الكنيسة عن جميع كنائس حي الفجالة بصغرها وجمال عمارتها المشيدة على الطراز البيزنطي، ويجتمع فيها أيام الآحاد جماهير من الكاثوليك الأقباط والروم والموارنة واللاتين.

(٧-٥) كنيسة السريان الكاثوليك

أقرت الجمعية الخيرية للسريان الكاثوليك بناء كنيسة في الظاهر، وجمعت لهذا الغرض مائتي جنيه، ودفع الكومندور جرجس براهمشا عميد الطائفة مثل هذا المبلغ، وابتيع بالمجموع قطعة أرض مجاورة لمنزل سعادة يوسف مسرة باشا، ثم لاحظ القومندور براهمشا أن الطائفة عاجزة عن بناء الكنيسة، فاتفق مع الجمعية على أن تسلم إليه الأرض التي ابتاعتها، ومقابل ذلك يبني الكنيسة في جزء من حديقة منزله، فوافقت على رأيه، وأتمَّ بناء الكنيسة سنة ١٩٠٩، وأعاد إلى الجمعية الخيرية المبلغ الذي اكتتبت به الطائفة لشراء الأرض.

(٧-٦) كنيسة الكلدان الكاثوليك

أنشأتها السيدة هيلانة كريمة المرحوم أنطون بك البغدادي في سنة ١٩٠٣ بجوار البيت الذي كانت تقطنه إلى جانب المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك.

(٧-٧) كنيسة البروتستانت

كان الأقباط البروتستانت من أهالي الفجالة يجتمعون للصلاة أيام الآحاد في قاعة مدرسة البنات الأميريكية، ثم انتخبوا القس غبريال ميخائيل الضبع واعظًا لهم، والرجل عالم تقي غني يقوم بأداء مهمته بلا أجر، فضاقت قاعة المدرسة بالحاضرين، فنصبوا خيمة في فناء المدرسة، ثم استقر الرأي على تشييد كنيسة، واكتتب كثيرون منهم بالمال اللازم لها، واشتروا دارًا واسعة أمام مدرسة الآباء اليسوعيين وهدموها، وهم ينتظرون بنافد الصبر إبرام الصلح للشروع في التشييد.

(٨) المعاهد الخيرية والإصلاحية

(٨-١) جمعيات الأقباط

تضم الفجالة جمعيات الأقباط والمعاهد التابعة لها؛ ففيها الجمعية الخيرية القبطية، ومستشفاها، ومشغلها، وجمعية التوفيق، ومدارسها، وجمعية ثمرة التوفيق، ومدرستها المجانية، ومستوصفها، ونادي اتحاد الشبان المسيحيين، وجمعية أصدقاء الكتاب المقدس، وبيوت الطلبة، ومجتمع الإصلاح القبطي، وجمعية زهرة الآداب. وقد فصلت أغراض كل واحدة منها وأعمالها في كتابي «جمعيات الأقباط وأنديتهم».

ومما يحسن ذكره أن الجمعية الخيرية قررت نقل مستشفاها من الدار المؤجرة له في أول شارع عباس إلى عمارة خاصة، وقام خلاف بين الأعضاء في هذا الشأن، فضَّه صاحب العزة جورجي بك ويصا بأن تعهد بتكملة المبلغ الذي تبرع به أعيان الطائفة لشراء الأرض، وبناء المستشفى، وقد أعلن ويصا بك أنه لو بلغت هذه التكملة عشرة آلاف جنيه فهو مستعد للقيام بها.

أما مستوصف «جمعية ثمرة التوفيق» فمعهد خيري تشتغل الجمعية الآن في إنشائه، وتبرع جماعة من الأطباء الأقباط بفحص المترددين عليه بالمجان، أو برسم زهيد لا يتجاوز ٢٠ مليمًا.

وكان للأقباط نادٍ أدبي في الفجالة اسمه «نادي النيل» أنشأه جماعة من الشبان المهذبين، وفيه ألقى الدكتور مرقس أفندي صادق خطبة اجتماعية، طالب فيها بمساواة المرأة القبطية بالرجل في الميراث، ولكن هذا النادي لم يعش أكثر من سنتين.

(٨-٢) جمعية يد المساعدة

لما وردت الأخبار من سوريا ولبنان باشتداد المجاعة والفقر، ألفت السيدة سعدى سابا جمعية من نخبة السيدات السوريات على اختلاف مذاهبهن لإعداد الملابس لأولئك البائسين، فجمعن مبلغًا من المال، وطفقن يشترين من حين إلى أخرى كميات من البفتة والكستور، ويجتمعن أسبوعيًّا لتفصيلها وخياطتها، وأعلنت «جمعية الإعانة السورية بمصر» نتيجة عمل هؤلاء السيدات الكريمات في أحد بلاغاتها الأخيرة إلى الصحف، فقالت: «أرسلت الجمعية صندوق ملابس كبيرًا يشتمل على ٦٨٠ قطعة من الفساطين والقمصان وغيرها، و٦٢٤ مترًا من الأقمشة، و١١٠٦ أزواج شرابات، و٦٠ بكرة خيط، و٢٤ دستة زراير، وهذا الصندوق مقدم من جمعية يد المساعدة للسيدات السوريات بمصر التي ترأسها حضرة الفاضلة الكريمة السيدة سعدى سابا إلخ إلخ.»

(٨-٣) جمعية الاتحاد اللبناني

يؤخذ من تقارير هذه الجمعية أنه قد أنشأها في القاهرة حضرة الكاتب الفاضل الشيخ أنطون الجميِّل في شهر نوفمبر من سنة ١٩٠٩، وكانت الغاية التي ترمي إليها الدفاع عن امتيازات جبل لبنان، والمطالبة بحقوقه المهضومة؛ لأنه كانت قد بدت حركة في لبنان على أثر الدستور العثماني يقصد منها التنازل عن امتيازات الجبل وضمه إلى ولايات تركيا الدستورية، فلقيت الجمعية الجديدة بعض المعارضة؛ لأن الناس كانوا لا يزالون مغرورين بحركة فتيان الأتراك، ولكن لم يلبث اللبنانيون أن التفُّوا حول الاتحاد اللبناني عندما رأوا فشل الدستور العثماني.

وعلى إثر إعلان الحرب الكبرى جعلت الجمعية غايتها كما يؤخذ من قانونها الدفاع عن مصالح لبنان السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية على قاعدة «استقلال لبنان التام ضمن حدوده الطبيعية بضمانة الدول».

ولهذه الجمعية فروع في الإسكندرية والمحلة الكبرى والمنصورة. وفي أمريكا الشمالية والجنوبية حيث يكثر عدد المهاجرين اللبنانيين جمعياتٌ لبنانية كثيرة على اتصال دائم بجمعية مصر، ومن هذه الجمعيات ما أخذ اسم «الاتحاد اللبناني»، وخصوصًا في كندا وفي الأرجنتين؛ حيث تصدر جريدة عربية باسم الجمعية.

(٨-٤) جمعية الإسعاف للسيدات السوريات

تأسست منذ سبع سنوات، ومركزها في المنزل رقم ٢٢ بشارع أبي الريش، وينحصر عملها في توزيع الملابس على العائلات البائسة المستورة من الطوائف الكاثوليكية السورية، ويعزى الفضل في تأسيس هذه الجمعية وتدبير مهامها إلى حضرة رئيستها العاملة مدام عبد الله باشا صفير، ومدام بسترس، ومدام سابا أفندي حنين بسطوروس، ومدام سليم بك صيدناوي. وقد سعين مؤخرًا إلى ضم سيدات من الروم الأرثوذكس إليهنَّ ليكونَ خيرُ الجمعية شاملًا الطوائف السورية كلها، فلم يفلحن في إتمام مقصدهن. وتوزع الجمعية الملابس مرة قبيل عيد الميلاد، ومرة قبيل عيد الفصح عدا التوزيعات الخصوصية، وتجهيز البنات الفقيرات إلخ. ويتكوَّن دخل الجمعية من تبرعات المحسنين، وليلة خيرية تقام مرة في السنة.

(٨-٥) النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية

أنشأه جماعة من الشبان السوريين الكاثوليك بعناية ومساعدة سيادة المطران مكاريوس سابا النائب البطريركي العام لطائفة الروم الكاثوليك، وسنُّوا له قانونًا صُدِّق عليه في شهر مايو سنة ١٩١٨.

ومركز هذا النادي في المنزل رقم ١٤٥ بشارع عباس أمام محطة المترو، ويبلغ عدد أعضائه الآن ١٣٠ عضوًا، ويديره مجلس مؤلف من ٩ أعضاء، والمدير الروحي هو الأب دايري رئيس الآباء اليسوعيين بالقاهرة، وشعار النادي هو: «التقوى، الاتحاد، العمل»، ويجتمع الأعضاء مساء كل يوم للمسامرة والتلهي ببعض الألعاب المباحة، مثل: البليارد، والدومينو، والطاولة. وتعقد جلسات أسبوعية في فصل الشتاء تلقى فيها محاضرات أدبية واجتماعية ودينية.

(٨-٦) المستوصف الشرقي

أنشأته الجمعية الخيرية للروم الكاثوليك، ومركزه في شارع سيف الدين المهراني بملك سعادة مقار باشا عبد الشهيد الذي تقر الجمعية بفضله، لحسن معاملته له.

وفي هذا المستوصف قسم للأمراض الباطنية، وآخر لأمراض العيون، وثالث للجراحة، والعلاج والدواء فيه بالمجان لفقراء طائفة الروم الكاثوليك، وبرسم بسيط لغيرهم، ويتراوح عدد المترددين عليه بين ١٢ ألفًا و١٥ ألفًا في السنة.

ويقوم بالعمل فيه جماعة من الأطباء السوريين، ويساعدهم في التمريض فريق من راهبات بيزانسون، وبعض الآنسات من العائلات السورية المعروفة، وتصرف الجمعية الخيرية على هذا المستوصف مبلغًا كبيرًا، يضم إلى دخله من الإحسانات الخصوصية، وإيراد حفلة تمثيل سنوية.

(٨-٧) نهضة العلمانيين ومدارس الأحد

إلى جانب مدرسة البنات الأميريكية شقة صغيرة مؤلفة من قاعة وغرفتين، يقيم فيها الشيخ متري صليب الدويري محرر جريدة الهدى، وصاحب مشروع نهضة العلمانيين، ومدير حركة مدارس الأحد، وهذا الرجل يقوم بمفرده بعمل لا يقوى عليه أكثر من واحد، وسيكون للنهضة الساعي في إتمامها أثر في حياة طائفة الأقباط الإنجيليين إن لم يدركه أبناء الجيل الحاضر، فسيجني أبناؤهم فوائده.

(٨-٨) جمعية القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس

قسم الرجال: تأسس في أول سبتمبر سنة ١٩١٥، وكان عدد أعضائه ٢٣ عضوًا، وتولى الرياسة حضرة الأديب سليم أفندي قبعين، ثم تولاها حضرة صاحب العزة نعوم بك شقير.

وكان الغرض الأساسي للجمعية منحصرًا في إسعاف الفقراء، ومعالجة مرضاهم سواء في بيوتهم أو في المستشفيات، ودفن موتاهم.

ثم أنشأت مدرسة تحضيرية لأولاد الفقراء، يكفلها صاحب العزة ميشيل بك لطف الله، ويدفع ثلاثة أرباع نفقاتها.

ومن أعمال هذه الجمعية أنها تعين كل منكوب من صغار التجار والصناع برأس مال يستأنف به عمله، وتقيم من حين إلى آخر حفلات أدبية فكاهية راقية، وتوزع الدقيق على ١٠٤ عائلات، وتكسو تلاميذ المدرسة مرة في الصيف وأخرى في الشتاء، وتوزع اللحم والأرز والسكر والنقود والملابس على الفقراء في عيدي الميلاد والفصح.

قسم السيدات: أنشأته السيدتان الجليلتان إلين سرسق ولوريس لطف الله، وتشترك معهما في إدارته نخبة من السيدات الأرثوذكسيات، والغرض من هذا القسم إعداد البنات الفقيرات لأن يكنَّ ربات بيوت أو خياطات ماهرات، فأنشأت لهن الجمعية قسمًا للبنات الصغيرات، يتعلمنَ فيه القراءة والكتابة، ثم ينتقلن إلى المشغل، فيتعلمن تفصيل الملابس، وخياطتها على أحدث الأزياء. وتقدم الجمعية إلى كل من تلميذات المشغل أجرة بحسب كفاءتها، يحجز منها ٥ في المائة تحفظ للتلميذة في خزينة المشغل حتى تعطى لها مساعدة عند زواجها.

ولكل جمعية إدارة خاصة، ولكنهما تتعاونان على إتمام الأعمال الخيرية، وتقتسمان دخل الليلة الخيرية السنوية التي تقيمانها في دار الأوبرا السلطانية.

(٩) مدارس الفجالة

(٩-١) مدرسة العائلة المقدسة للآباء اليسوعيين

حضر الآباء اليسوعيون إلى العاصمة في سنة ١٨٧٩م، وأنشئوا مدرسة لهم في درب الجنينة، ثم ابتاعوا أرضًا واسعة في أول الفجالة، واحتفلوا بوضع الحجر الأساسي لمدرسة فيها سنة ١٨٨٨ تحت رياسة المونسنيور كياكاروا القاصد الرسولي، وافتتحوها في شهر مايو سنة ١٨٨٩، وكان الأب فوجول أول من تولى نظارتها.

وقد أنشئوا فيها قسمًا إكليريكيًّا تحضيريًّا، تربى فيه كثيرون من أبناء الأقباط الكاثوليك، وأتموا علومهم في بيروت، ولكن هذا القسم أُلغي منذ زمن بعيد، واقتصرت المدرسة الآن على قسم علمي ابتدائي، وقسم تجهيزي يؤهل الطلبة لنيل البكالوريا المصرية والبكالوريا الفرنسوية، وفيها قسم كلاسيك للتوسع في آدار اللغة الفرنسوية والآداب اللاتينية، ويبلغ عدد تلاميذها نحو ٥٠٠ تلميذ منهم عدد كبير في القسم الداخلي.

وإلى جانب هذه المدرسة مدرسة تحضيرية للأحداث أنشئت في سنة ١٩١٢، وفيها نحو ١٠٠ تلميذ يتلقون مبادئ العلوم توصلًا إلى دخول المدرسة الكبرى.

ولأعيان المصريين وأكابرهم على اختلاف مللهم ونحلهم ثقة عظيمة في الآباء اليسوعيين، وعنايتهم بالتربية العلمية والأدبية، ومن يقرأ تقارير الآباء السنوية يدهشه جدول المتخرجين ممن يشغلون الآن أعظم المناصب، سواء في الحكومة أو دوائر الأعمال والمهن الحرة كالطب والهندسة والمحاماة.

(٩-٢) مدارس جمعية التوفيق

لجمعية التوفيق القبطية ثلاث مدارس في مركزها بالفجالة، وهي:

مدرسة الصبيان: كانت تسمى قبلًا مدرسة الاقتصاد، وتولت جمعية التوفيق إدارتها في سنة ١٨٩٥، وكانت في أول عهدها مدرسة ابتدائية صغيرة، أما الآن فإنها تشتمل على قسم ابتدائي فيه ٤٧٥ تلميذًا، وقسم ثانوي فيه ٣٠٠ تلميذ، وقد نجح في البكالوريا — قسم أول — في هذه السنة ٨ تلاميذ من ١٧ تلميذًا، ونجح في الكفاءة — قسم ثانٍ — ١٠ تلاميذ، وقد أنشأ خريجو مدارس التوفيق جمعية خصوصية فيها الآن ٤٠ عضوًا.

مدرسة البنات: أنشئت في سنة ١٨٩٧، وفيها الآن ٢٧٥ تلميذة، وقد جاء في التقرير الأخير للجمعية أنه قد تخرج من مدرسة البنات عدد ليس بالقليل من البنات اللائي هنَّ الآن ربات بيوت عامرة، أو شاغلات وظائف مختلفة، ومن هؤلياء المتخرجات تلميذة تزوجت بالقاهرة، وسافرت إلى أمريكا، وهي خطيبة كبيرة هناك، ويلقبها الأميريكيون بكوكب الشرق، ومنهن كثيرات مدرسات وناظرات لمدارس ابتدائية أهلية وأميرية، وبالنظر إلى ضيق سراي التوفيق عن أن تتسع مدارسها كلها، نقلت مدرسة البنات إلى دار قريبة من مركز الجمعية.

مدرسة الصنائع: كان عدد تلاميذ هذه المدرسة ٨٣ في سنة ١٩١٤، أما في السنة المدرسية الماضية فقد نقص إلى ٦٨ تلميذًا، منهم ٣٦ يتعلمون البرادة، و٨ خراطة المعادن، و٦ الحدادة، و١٧ النجارة، و١١ الطباعة.

(٩-٣) مدرسة البنات القبطية

مدرسة ابتدائية تابعة لبطريكخانة الأقباط الأرثوذكس، أنشئت في سنة ١٨٧٦، وكانت أولًا في قسم مستقل بالدار البطريركية، له باب خاص في شارع كلوت بك، فلما عمت المناكر هذا الشارع انتقد الغيورون بقاء البنات فيه، فقررت الدار البطريركية نقلهن إلى محل المدرسة الحاضر وهو من أملاك الدير المحرق، ولم يسمح رئيس الدير بإعداد البيت للمدرسة، إلَّا بعد أن أُعطي بدله من أملاك البطريكخانة.

وجاء في التقرير الأخير للأستاذ إبراهيم أفندي تكلا ناظر المدارس القبطية أن في مدرسة البنات بالفجالة ١٧٢ تلميذة، منهن ٤٥ تلميذة بمصروفات، و٥٢ بنصف مصروفات، و٧٥ مجانًا، ثم أبدى أنه غير راضٍ عن بناء المدرسة لقدمه وانحصاره بين مساكن وأزقة ضيقة؛ حيث لا هدو ولا سكينة، فضلًا عن الروائح الخبيثة المنبعثة مما يجاور المدرسة.

ولا يزال الكثيرون من أهالي الفجالة يطلقون على دار هذه المدرسة اسم «بيت المطران»؛ لأنه كان يقطنها الأنبا يؤنس مطران أبروشية المنوفية، بعد أن اعتزل وظيفته لشيخوخته وفقد بصره. ومما يذكر عنه أنه كان شديد التعصب للغة القبطية، والرغبة في الصلاة بها، كما كان كثير النفور من الوعظ، وباعتزاله العمل أُلْغيت أبروشية المنوفية، وأحيلت أعمالها إلى مطران الإسكندرية.

وبعد وفاته بقي البيت مهجورًا، ثم سكنه المرحوم جرجس بك حنين نحو ثلاث سنوات.

(٩-٤) مدرسة البنات الأميريكية

عنيت ببناء هذه المدرسة الآنسة م. ل. هوتيلي شقيقة الأسقف هوتيلي الإنجليكاني على قطعة أرض وهبتها لها الحكومة المصرية في سنة ١٨٧٢، وعاونتها في إدارتها السيدة فريدة شكور، وزوجها الخواجا منصور شكور، وكانت السيدة فريدة لبيبة ذكية؛ فلم تكن تقتصر على التدريس، بل كانت تقصد إنكلترا فتلقي الخطب داعية القوم لإسعاف الآنسة هوتيلي، وفي الوقت ذاته كان زوجها الخواجا منصور شكور يساعد رجال الإرسالية الإنجليكانية في الوعظ والتبشير بأنحاء القطر المصري، وعلى الأخص في الوجه القبلي، فكافأتهما الآنسة هوتيلي بتعليم ابنيهما نجيب ولويزا — الآن سعادة نجيب باشا شكور

ومدام شهاب — في بلاد الإنكليز، واعتبرت الآنسة هوتيلي آل شكور جزءًا من عائلتها، فبنت بيتًا كبيرًا إلى جانب المدرسة — حيث توجد الآن المدرسة البطريركية للروم — وأسكنتهم معها، وجعلت هذا البيت ميراثًا للسيدة فريدة وأهلها.

أما دار المدرسة، فجعل الدور الأَول منها لمدرسة البنات، والدور الأَعلى لمدرسة الأَولاد، ومسكن الدكتور خليل عازوري، الذي كان يعالج الفقراء مجانًا لحساب المرسلين في الشقة الصغيرة الواقعة جانب البيت، ثم اتخذها المرحوم الدكتور كرم محلًّا لعيادته، وصارت الآن مكتبًا لجريدة الهدى.

ولم تكتف الآنسة هوتيلي بمكافأة السيدة فريدة شكور في أيام حياتها، بل جعلتها وأولادها من بعدها مديرين لمدرسة البنات، ولا يجوز لهم التنازل عنها إلَّا لإرسالية إنجيلية، وبعد وفاة الآنسة هوتيلي تولت السيدة فريدة أعمال المدرسة، وكان لها فضل عظيم في تخريج عدد كبير من البنات القبطيات، فلما تعبت جرت مخابرات طويلة بين الكنيستين؛ الإنجليكانية في إنكلترا والمشيخية في أمريكا واللورد كرومر في مصر، كانت نتيجتها أن عهد في إدارة المدرسة إلى المرسلين الأمريكان في مصر من أول سبتمبر سنة ١٩٠١.

وهي تسير الآن بحسب بروجرام المدارس الأمريكية في مصر، ويبلغ عدد تلميذاتها وتلاميذها — من الصبيان الصغار — ٢٩٥، ومدة التعليم فيها أربع سنوات، وتتولى التعليم فيها ثماني معلمات.

(٩-٥) مدارس أخرى

مدرسة ثمرة التوفيق: مدرسة مجانية لتعليم الأيتام والفقراء من الأقباط الأرثوذكس، وقد فصلْتُ الكلام عليها في كتابِي «جمعيات الأقباط وأنديتهم».

المشغل البطرسي والمدرسة البطرسية: تديرهما الجمعية الخيرية، وللمشغل إعانة من الحكومة، وفيه ١٠٨ بنات، وفي المدرسة — وهي تحضيرية للمشغل — ٢٢٧ بنتًا.[٢]

[٢] الإحصائيات والمعلومات الواردة عن هذه المدرسة، والمدارس التي تليها مأخوذة من كتاب «إحصاء المكاتب والمدارس للقطر المصري» (السنة المكتبية ١٩١٤-١٩١٥) وهو الجدول الأخير الذي أصدرته مصلحة عموم الإحصاء الأميرية.

مدرسة مانسليان: مدرسة بنات ابتدائية وثانوية، ويقبل فيها الأطفال الصبيان إلى سن معينة، أنشئت فيه سنة ١٩٠٥، وفيها ١٠ تلاميذ ذكور و٨٠ تلميذة.

المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك: تحضيرية وابتدائية وثانوية للذكور، أنشئت في سنة ١٩٠٧، وعدد تلاميذها ٢٩٨ تلميذًا.

كوليج دي لاسال (للفرير): أنشئت سنة ١٩٠٤، وفيها ٥٩٩ تلميذة.

نوتردام لاديليفراند (مدرسة داخلية للبنات): أنشئت سنة ١٨٩٣، وفيها ٢١٩ تلميذة.

دار التربية العلمية الأخلاقية: أنشأها حديثًا حضرة الفاضل توفيق أفندي عزوز، صاحب مجلة المفتاح، وهي تعلم الصبيان العلوم الأولية، واللغة القبطية بأجور زهيدة.

مدرسة سيدة الرشاد: مدرسة ابتدائية للبنات تديرها طغمة من الراهبات.

مدرسة الرويعي: مكتب ابتدائي للبنات تشرف عليه وزارة المعارف.

(١٠) خمسون ألف جنيه

يطول بي نفس الكلام إذا أردت بسط حال كلٍّ من هذه الجمعيات والمدارس وغيرها من المعاهد الخيرية، وفروع جمعية القديس منصور دي پول، فأكتفي بالقول إن المال الذي يتبرع به أهالي هذا الحي، ويجمعونه من غيرهم للكنائس والمدارس الخيرية والمستشفيات وإعالة الفقراء؛ لا يقل عن ٥٠ ألف جنيه في السنة، فهل في القاهرة حي واحد يضم مثل هذه المؤسسات الخيرية، أو تقوم طوائفه وجماعاته بما يقوم به أهل الفجالة؟

(١١) شارع الأدب والأدباء

رغبةً في ترقية الصناعة في البلاد، وتشجيع القائمين بأمرها، تألفت لجنة من نخبة الأُدباء وأرباب الأقلام والمؤلفين، برياسة صاحب العزة أمين بك واصف، وأقاموا في «فندق الكونتيننتال» مساء يوم الجمعة ٢٨ أبريل سنة ١٩١٦ حفلةً أدبية شائقة؛ تكريمًا لحضرة الفاضل نجيب أفندي متري صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها؛ لمرور

خمس وعشرين سنة على إنشاء مطبعته، واعترافًا بما امتازت به من الإتقان الفني، وما أصدرته من المؤلفات الأدبية والعلمية.

وقد تفردت هذه الحفلة بوفرة من أمَّوها من ذوي المكانة، وما ألقي فيها من الخطب والقصائد؛ فقد خطب فيها أصحاب العزة نعوم بك شقير «في مطبعة المعارف، ولماذا نحتفل بها»، وصالح بك جودت في «علاقة الناشر بالمؤلف»، وحلمي بك عيسى في «عناية المحتفل به بصناعته»، والآنسة مي زيادة في «العجائب الثلاثة»، والشيخ أنطون الجميِّل في «مشاهدات في مطبعة المعارف»، أما شعراء الحفلة فهم: خليل أفندي مطران، وحافظ بك إبراهيم، وولي الدين بك يكن، وأسعد أفندي داغر، ووديع أفندي البستاني،[٣] وأخيرًا قام المُحتفَل به، وشكرا الحاضرين، ثم قدمت إليه اللجنة بالاشتراك مع حضرة صاحب العزة ميشيل بك لطف الله كأسًا نفيسًا من الفضة إعجابًا بجده وإتقانه صناعته.

وقد افتتح الأديب الجميِّل خطبته بقوله: «لو بُعث المقريزي من رمسه، أو نُشر علي باشا مبارك من قبره، وحاول هذا أو ذاك وضع خُطط جديدة لمدينة القاهرة، لكان كلاهما — ولا شك — يُطلق على شارع الفجالة اسم: شارع الأَدب والأُدباء، أو شارع المعارف.

ففي هذا الشارع: مطبعة المعارف ومكتبتها، ومكتبة الهلال، ومجلة الزهور، ومجلة الروايات الجديدة ومطبعتها، ومطبعة الاقتصاد، ومجلة سركيس، ومجلة فتاة الشرق، ومجلة الجنس اللطيف، وجريدة الوطن، ومطبعتها، وجريدة الأخبار، ومطبعتها، ومجلة المحيط، ومجلة رعمسيس، وجريدة مصر، ومطبعتها، ومجلة فرعون، ومجلة المفتاح، وجريدة العمران، ومطبعة العرب، وإدارة مجلة الهلال، ومطبعتها، ومطبعة السلام، ومكتبة الأخبار، ومكتبة الطلبة، ومجلة الحقوق، ومجلة ميزان الاعتدال إلخ.

فمن هذه البقعة الصغيرة التي لا تتجاوز الكيلو متر يصدر قسمٌ كبير من المطبوعات العربية، وينتشر في أربعة أقطار العالم، فأحر بمحافظتنا أن تغيِّر اسم هذا الشارع، ولا سيما أن لا أثر فيه اليوم للفجل والفجالين، وتسميه بشارع المعارف.

ولو حددنا الموقع الجغرافي لمطبعة المعارف، لقلنا إنها واقعة على مدخل هذا البوغاز الأَدبي.

[٣] جُمعت الخطب والقصائد، ووصف الحفلة وأقوال الصحف في كتاب مطبوع طبعًا أنيقًا اسمه «تذكار العيد الفضي لمطبعة المعارف ومكتبتها».

وخطبة الأديب الجميِّل صفحة من صفحات تاريخ الأدب العصري، ومتن لو شرح لكان خير كتاب لأخبار نحو مائة من علماء العصر وخيرة أُدبائه ومفكريه الذين سكن بعضهم الفجالة، وقضى معظمهم ساعات في مكاتبها ومطابعها، مشتغلين بتثقيف العقول وتحرير الأذهان.

ففي «الفجالة» سكن أصحاب المقطم والمقتطف واللطائف عندما حضروا إلى مصر منذ ٣٢ سنة.

وفي «الفجالة» قضى المرحوم جرجي زيدان ربع قرن متنقلًا بمطبعته وعائلته من دار إلى أُخرى، وتحت سماء هذه البقعة كتب ٢٢ مجلدًا من الهلال، وعشرات من الروايات، وكتب التاريخ، والأدب.

وفي «الفجالة» سكن سليم أفندي سركيس، وتزوج، وبعد أيام أُخرج من بيته إلى حيث سجن أسبوعًا، بتهمة قذفه في الإمبراطور غليوم، ثم قضى سنوات في أمريكا، وعاد إلى الفجالة، وفيها أنشأ «مجلة سركيس»، ووزع على الأُدباء والكتاب جوائر مالية وفنية وأدبية لم يسبقه إليها سابق.

وفي «الفجالة» يسكن خليل أفندي مطران الشاعر الكاتب الغني عن الوصف والتعريف، وسقراط بك سبيرو اللغوي المحقق، والكاتب المعروف في اللغتين العربية والإنكليزية، وأسعد أفندي داغر المحرر في المقطم.

ولا تقتصر الفجالة على الأُدباء المشتغلين بالصحف، أو الكتاب المعروفين في عالم الأدب، بل ترى فيها غير واحد ممن لا يَعرف فضلهم وأدبهم إلَّا المختلطون بهم، وفي مقدمة أولئك صاحب العزة سليم بك باخوس، وإبراهيم بك مصور مترجم مؤلفات السير ويليم ويلكوكس — وقد نقل سكنه من الفجالة، ولكنه يقضي معظم نهاره فيها — والدكتور يوسف أفندي سعد، والمحامي إبراهيم أفندي الجمال صاحب مجلة الحقوق، والدكتور جورجي أفندي صبحي الباحث في اللغة القبطية وآثار قدماء المصريين ومدنيتهم، والخوري جبرائيل رزق أُستاذ الطبيعيات في كلية العائلة المقدسة، والباحث السري يوسف بك نحاس، والصيدلي وديع أفندي حريري، والدكتور أمين أفندي معلوف صاحب المباحث اللغوية والتاريخية الدقيقة في المقتطف والمقطم، والأُستاذ منصور أفندي عوض الموسيقي الذي لا يبارى، والأديبان نجيب ونسيب مشعلاني، وغيرهم كثيرون من الأدباء ورجال الدين الكاثوليك، الذين تشهد لهم آثارهم القلمية ومجالسهم بالتفوق في العلوم والفنون المختلفة.

(١٢) أندية الأُدباء والمفكرين في الفجالة

(١٢–١) قهوة غنطوس مصوبع

أُنشئت سنة ١٨٩١، والفجالة يومئذٍ قليلة المباني، كثيرة الحدائق، لا يأوي إليها إلَّا طالب هدوء أو مسترق لحاظ، وأقفلت في أواخر فبراير سنة ١٩١٦ بعد أن ظلت ربع قرن مجمعًا للأُدباء والصحفيين المترددين على شارع الفجالة والقاطنين فيه، يجرهم إليها لطف الخواجا غنطوس وشرابه السائغ ومزاته المنتقاة. والخواجا غنطوس، أطال الله بقاءه، أديب ظريف يلذك مجلسه بنوع أخص بين الساعة العاشرة والحادية عشرة صباحًا؛ أي قبل حضور الزبائن، فإذا شرفت أمر لك بالقهوة، وأسمعك من كل فن خبرًا.

وقد أنشأ الخواجا غنطوس جريدة أسبوعية سماها «الإعلان» في سنة ١٨٩٢، وجعل قهوته مركزًا لإدارتها.

وشرع في نشر سلسلة كتب تصدر تباعًا باسم «مكتبة الإعلان»، قرأت منها كتابًا في «أُصول الشطرنج»، وآخر في مجموعة قوانين ولوائح.

وكان بين الأُدباء الذين آووا إلى قهوة غنطوس: الشيخ إبراهيم اليازجي، وابن أخته الشيخ نجيب الحداد، وسليمان أفندي البستاني. فكانوا إذا ما طلبوا الراحة أقبلوا على هذه القهوة، فتعقد حولهم حلقة من فتية «غذوا بلبان البيان، وجرُّوا على سحبان ذيل النسيان» على ما يقول الحريري.

وكثيرًا ما شهدت زوايا تلك القهوة تصحيح مسوَّدات «الضياء» و«صلاح الدين الأيوبي» و«الإلياذة».

ومن غريب الاتفاق أن في تلك القهوة التي أَلِفها صاحب الضياء وضع بروجرام جنازته، فإنهُ ما فاضت روحه الكريمة في الزيتون حتى ضرب سليمان أفندي البستاني ميعاد الاجتماع «عند مصوبع»، وهناك رتبوا الجنازة، فوفوا له بحقوق الصداقة في مماته كما وفوها في حياته.

وممن اتخذوا قهوة مصوبع «محلًّا مختارًا» الأُستاذ إبراهيم أفندي الجمال المحامي الأديب، والمرحوم ميشيل الحكيم، وإبراهيم النجار، والمرحوم خليل جاويش، وأخوه نجيب أفندي جاويش، ونجيب أفندي مشعلاني. فكانوا يقضون ساعةً ظهر كل يوم إلى جانب البنك، ويتناولون «الأبريتيف»، ممزوجًا بما رقَّ وراق من بدائع المنثور والمنظوم.

وقلَّ أن أديبًا معروفًا في القاهرة، أو مر بها لم يظلل رأسه سقف قهوة مصوبع، بل الأقل منهُ أن يكون أحدهم قد خرج من محل مصوبع يومًا ما غير راضٍ عن كمال الخدمة التي أُديت إليه، أو هيئة الجمعية التي جلس إليها.

و«عند مصوبع» بدأت الدعوة لترشيح سليمان أفندي البستاني للنيابة عن ولاية بيروت في مجلس المبعوثان على أثر إعلان الدستور في تركيا.

و«عند مصوبع» عقدت الجلسة التي تقرر فيها اعتصاب تلاميذ المدرسة الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس سنة ١٩٠٣، وهناك وضعت خطة الاعتصاب ونفذت، وأرسل الطلبة تلغرافًا إلى الشيخ محمد عبده، وكان مفتي الديار المصرية في ذاك الحين، يسألونهُ أن يأويهم في الأزهر لتخلي طائفتهم عنهم، فأوفدت البطريكخانة جواسيسها، وفي مقدمتهم المرحوم «العريف عياد» إلى «قهوة مصوبع»، فطفقوا يستلبون المعتصبين واحدًا فواحدًا، ويهددون العاصين حتى فشل الاعتصاب بعد أسبوعين.

(١٢-٢) الحلواني كوستي

كان محله في أول شارع الفجالة إلى جانب بار اشتورا.

و«عند كوستي» كان ملتقى الأعضاء العاملين في جمعية التوفيق القبطية أيام زهوها، فإذا ما أتم أعضاء اللجنة أعمالهم لا بد من «تحويدة» على كوستي لتناول كأس أو اثنتين على الواقف، وهناك كانت تجري المفاوضات غير الرسمية بين المرحوم يعقوب بك نخلة رفيلة، ورفلة أفندي جرجس، والدكتور إبراهيم بك منصور، وفرج بك إبراهيم، وغيرهم من أقطاب تلك الجمعية التي نامت الآن نوم أهل الكهف، وإن كانت قد استعاضت عن الإصلاح الملي بنشر التعليم.

(١٢-٣) قهوة أوربا

كانت منذ ١٦ سنة مركزًا لفئة من الشبيبة القبطية المنوَّرة التي تشتغل بإخلاص لمصلحة طائفتها، وفي قهوة أُوربا كان يجتمع الأصدقاء الأربعة، وهم: المرحوم باسيلي أفندي نصر — وقد قصفت المنية غصن شبابه منذ بضعة أشهر — وحنا أفندي يوسف منصور المحامي، وميخائيل أفندي خليل، وفهيم أفندي صليب، ويكتبون جريدة «الصوت الصارخ»، وكانت مجلة نصف شهرية عرفت بالجسارة والإقدام وعدم المبالاة.

وكان مدير القهوة في ذاك الحين رجلًا أشيب سميناه «كروجر»؛ تخليدًا لذكرى البطل البويري الشهير.

(١٢-٤) قهوة مراد

هي القهوة الوطنية الكبرى الوحيدة التي أنشئت في شارع الفجالة، مزاحمة قهوات اليونان والسوريين وخمارات الزبيب القبطي. صاحبها مراد أفندي محمد، وهو رجل مهذب ظريف، وكان ينتاب قهوته في السنوات الأخيرة جمهور من محرري الجرائد وكتابها، أذكر منهم: جورجي أفندي طنوس صاحب المنبر، وميخائيل أفندي بشارة صاحب مجلة العظماء، وعوض أفندي واصف صاحب المحيط.

وفي «قهوة مراد» دوَّن الأديب أحمد أفندي أبو الخضر منسي مذكراته ومفكراته التي لم تطبع بعد، وهي مجموعة أخبار شخصية، وملاحظات حيوية دقيقة فيها كثير من غير المألوف، وما لا يطابق آراء فئة كبيرة من المتصدرين للتحرير والتحبير، ولكنها تنم عن ذكاء عظيم وذاتية مستقلة.

وفي «قهوة مراد» كان يجتمع عوض أفندي واصف، والدكتور فريد أفندي عبد الله، وزكي أفندي فهمي، أثر خروجهم من الكنيسة الإنجيلية في أيام الآحاد، وينضم إليهم جماعة من أعضاء هذه الكنيسة للمذاكرة في شئونهم الملية.

(١٢-٥) الشانزيلزيه

أرحب قهوات الفجالة وأكثرها غرفًا، راقت في عيني المرحوم جورجي زيدان صاحب الهلال، ولكنهُ أبى أن يختلط بزبائنها، فألف حلقة من الأُدباء وبعض موظفي الحكومة الذين يميلون إلى الأدب والأُدباء، فكان يحضر جلستهم كل ليلة سليم بك باخوس مدير الأموال المقررة في محافظة مصر، وعزيز بك أبو شعر الموظف في وزارة الأشغال، ونعوم بك شقير مدير قلم التاريخ في وزارة الحربية. وكان يتردد إليهم من حين إلى آخر الشيخ يوسف الخازن، ونجيب أفندي مشعلاني، وأخوه نسيب، وأنطون أفندي الجميِّل، والشيخ أمين تقي الدين، وولي الدين بك يكن، وسليم أفندي سركيس.

وقد انفرط عقد القوم، فاحتل معقلهم حضرة صديقنا الكاتب الفاضل ميخائيل أفندي بشارة داود، صاحب مجلة العظماء، ورئيس تحرير جريدة مصر.

وفي الدور العلوي من «الشانزيليزيه» صنعت مأدبة، وجلسة تعارف حضرها جمهور من الأُدباء، وحملة الأقلام لتحية حضرة الشاعر المجيد شلبي بك ملاط، مندوب أُدباء سوريا، في حفلة تكريم خليل مطران التي أقامها سليم أفندي سركيس بالقاهرة سنة ١٩١١.

وفي «الشانزيليزيه» تسحب نمر يانصيب بعض الجمعيات الخيرية بحضور مندوب من رجال الحكومة.

وفيها اجتمع في الأيام الأخيرة المعتصبون من عمال مالكونيان وغيرهم من لفافي السجاير، ووقف بينهم حضرة الفاضل توفيق أفندي عزوز خطيبًا حاضًّا على الهدو والسكينة وملازمة الاعتدال في إعلان المطالب.

وفي «الكازينو» الملحق بالشانزيلزيه مثلت أكثر الروايات العصرية الجديدة، وآخرها رواية «على كوبري قصر النيل»، التي يقوم بأهم أدوارها الشيخ أحمد الشامي، وأخوه مصطفى أفندي الشامي.

وفي «الكازينو» أقامت جمعية «ثمرة التوفيق» سوق إحسان خيرية، كانت موضع إقبال الخيرين ممن يقدرون أعمال الجمعية قدرها.

وفي «الكازينو» احتفل «مجتمع الإصلاح القبطي» بتأبي ن المرحوم أقلاديوس بك لبيب محيي اللغة القبطية، وزعيم الناهضين بها.

و«قهوة كازينو الشانزيلزيه» الآن ملك لحضرة الوجيه الخواجا عبد الله برنوطي، وهو يقدم الكازينو بلا مقابل لجميع الاحتفالات الخيرية والجلسات الأدبية.

خاتمة ورجاء

وبعد، فهذا ما تيسر لي جمعه وتحقيقه من أخبار حي الفجالة وأرباضه وحواشيه قديمًا وحديثًا، وقد اقتبست القسم الأوَّل منه من الخطط المقريزية، وابن دقماق، وابن إياس، وأبي المحاسن بن تغري بردي، وعبد اللطيف البغدادي، وعلي باشا مبارك، وغيرهم من كتاب السير وأصحاب الخطط والمؤرخين.

أما القسمان الثاني والثالث، فكل ما فيهما معلومات شخصية وسماعية ممن قطن آباؤهم أو جدودهم الفجالة في عهد نشأتها الأولى.

والفجالة — كما هو ظاهر — لا تمتاز في الوقت الحاضر على بقية أنحاء العاصمة في تنظيمها وأبنيتها، بل هناك ما هو أجدر منها بالوصف، سواء لآثاره الباقية، أو ما فيه من معاهد العلم والإدارات والمصالح، وغيرها مما يكاد تاريخه يضيع؛ لأنه لم يفكر فرد أو جماعة في وضع «خطط جديدة» للقاهرة في القرن العشرين.

أجل، لقد بذل المرحوم علي باشا مبارك جهد استطاعته في وضع خططه، ولكنه لضيق الوقت قد اكتفى بنقل كثير عن غيره نقلًا حرفيًّا، وإذا شكرنا له جهده في وصف بعض الجوامع، وأخصها جامع الرفاعي والمشهد الحسيني وجامع السلطان حسن، فإننا نأسف لتركه كثيرًا من الدور والعمارات الكبيرة والمنتزهات بلا وصف يذكر، سيما وقد كانت له مداخلة فعلية في تشييدها أو ملاحظتها، وبين يديه كل ما يلزمه من مستندات وإحصائيات، وتحت إمرته عشرات من المهندسين كان في وسعه أن يوجههم للتحقيق والتدقيق.

و«كتاب الخطط التوفيقية» على كل حال، ذخيرة نفيسة ستبقى على مدى الزمن، شاهد عدل على جهد ذاك الوزير العصامي الكبير، ولكن قد مضى على وضع هذه الخطط، وطبعها خمس وعشرون سنة ونيف، فتغيرت القاهرة، واتسعت حواشيها،

وعمها التغيير من كل جانب، وتعددت المكاتب الشاملة للإحصائيات والبيانات، فلدينا الدفترخانة المصرية، والمكتبة السلطانية، والمكتبة الخاصة لدار الآثار العربية، ومكتبة وزارة الحربية، ومكتبة الجمعية الجغرافية، ومكتبة المجمع العلمي المصري، والمكتبة الزكية، والمكتبة التيمورية، ومكتبة مصلحة المساحة، ومكتبة المعهد الأرخيثولوجي الفرنسوي، وغيرها من دور الكتب العامة والخاصة التي يمكن الاعتماد على ما في خزائنها من المستندات المطبوعة، والمخطوطة لوضع «خطط جديدة».

وكما تعددت المكاتب، فكذلك قد كثر عدد الباحثين، سواء من المصريين أو النزلاء الأجانب، وأصبح للبحث والتنسيق طرق لم تكن معروفة قبل اليوم.

ونظرة واحدة إلى مثل رسائل حضرة الفاضل المحقق يوسف أفندي أحمد عن «جامع ابن طولون» و«مدينة الفسطاط» و«جامع عمرو»، ومذكرة المرحوم ج. سلمون عن «قلعة الكبش وبركة الفيل»، ورسالة المرحوم مصطفى بك بيرم في «تاريخ الأزهر»، ومقارنتها بغيرها من خطط الأقدمين تدل الناظر على ما بلغه المعاصرون من رقي لا ينكر.

ولما كان وضع «خطط جديدة» كاملة سواء للعاصمة، أو القطر كله يتعذر على فرد، فإنني أرجو أن تكون هذه «الخطط» باكورة أعمال جمعية «التاريخ المصري» التي وضع نظامها جماعة من أهل الفضل، وتقرر افتتاحها في فصل الشتاء الحاضر.

وإن عناية عظمة سلطان مصر فؤاد الأوَّل، ورجال حكومته بخدمة فن التاريخ خير كفيل بتحقيق هذه الأمنية.